عرفان السيِّد ابن طاووس
دراسةٌ تحليليَّةٌ في الأفكار العرفانيَّة
للسيِّد ابن طاووس (القسم الثالث)

الدكتور محمَّد هادي فلاح

ترجمة : أيُّوب ناصر نعمة

مراجعة : أ.د عليّ عبَّاس الأعرجيّ

مركز تراث الحِلَّة

The Mysticism of Sayyid Ibn Tawus
An Analytical Study of Sayyid Ibn Tawus›s
Mystical Thoughts (Part Three)

Dr. Muhammad Hadi Falah
Translated by: Ayyub Nasser Ne'mah
Reviewed by: Prof. Ali Abbas Al-Araji
Hilla Heritage Center

٣-٣. محاسبة النَّفس

تُعدُّ محاسبةُ النَّفسِ مثالًا آخر من أُصولِ السُّلوك، وتأتي المحاسبة بعد المعرفةِ، وهي طريقُ نجاةِ الإنسانِ.

ومع ذلك، من الممكن إنتاجُ المعرفة؛ لذلك من المناسب إثارةُ موضوع النَّجاةِ بوصفه أساسًا في مباحثِ السُّلوك.

وأثرُه هو نحوٌ من تأهيل النَّفس لغرض المهمَّات من العبادةِ، والتي منه يُبحثُ عنِ التّكامل، والنَّجاة.

ويرى السيِّد الهدايةَ، والبعدَ عنِ الانحراف أهم من حياة الإنسان؛ «فهدايتُه إلى النَّجاةِ أهمُّ من الحياة»[١].

ولا يخفى من أنَّ السيِّد يرى علاقة بين المعرفة والنجاة والمحبَّة: «.. وقالَ جلَّ جلالُه في وصفه لأهل النَّجاة: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[٢]»[٣].

ويُعلم من جملةٍ من أدعية السيِّد من أنَّ النَّجاة في نظرِهِ لها مراتب، كما ورد في دعائهِ لابنه: «وأن أسأل الله أن تجتمعَ في دوام العزِّ، والإقبال، والجاه، وكمال النَّجاة»[٤].

والمحاسبةُ عبارةٌ عن برنامجٍ تدريبيّ لتنظيم السُّلوك الإنسانيّ، والتعرُّف على سلوكيَّات اليوم، والتَّدقيق الشَّخصيّ: «محاسبةُ الإنسان لنفسه، واستظهاره لتفريطه في يومه وأمسه»[٥].

(١) إقبال الأعمال: ١/ ٣٣١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.
(٣) فلاح السائل: ١١١.
(٤) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٢١٦.
(٥) محاسبة النفس، للسيِّد: ١١.

ومعه فإنَّ السـيِّد سجَّلَ لنا من أنَّ السَّـالك يحتاج إلى المحاسبةِ، وهي من الأصول العمليَّة للسُّلوك: «أنَّ الجحودَ، و التَّغافُلَ لا ينفعُك»[١].

«فيحسن أن أذكر ما تحتاج إليه عند منامك»[٢].

«فاعمل على ذلك؛ فإنَّه من كنوز كرم الله جلَّ جلالهُ الجزيل»[٣].

ويعتقد السيِّد أنَّ المحاسبة منهجٌ للوصول إلى السَّلامة عنِ النَّدامة:

«ودلّني على طريق السَّلامة عن النَّدامةِ»[٤].

ويرى السـيِّد أنَّ المحاسـبة توفِّر للإنسـان الأمانَ، وعـدمَ الوقـوعِ في التّيه: «وقد سلمت من دَرَكِ التَّضييع»[٥].

«والاستظهار ليوم القيامة»[٦].

فهو حسـابٌ قبل الحسـابِ: «الاسـتظهار للسَّـلامة من العقاب، والعتاب في يوم الحساب»[٧].

(١) «وذاكرًا أنَّ الجحود والتغافل لا ينفعك، بل يقتضي غضب من تحاسـبه، ويسـتقصي عليك. ثمَّ تسـتحضر بعقلك أنَّ جوارحك قـد كتبت قصصًا إلى الله تعالى، تشـكو من تصريفك لها في غير ما خلقت له، وكذلك يشكو منك كلّ من كلِّفت القيام له بحقٍّ وما قمت له به، فإذا برزت إليك من باب العدل أكتب معها قصَّة منك بلسـان تشـكو إلى الله تعالى منك، وتشـكو لمن شكا منك، وأعرضها جميعها من باب الفضل، فتقول ما معناه» اللهمَّ إنِّي قد حضرت للمحاسـبة، وما كان عندي قوَّة منِّي على حضوري بين يديك لمحاسبتك، ولا جرأة على كشف سوء أعمالي، فأنا ذاكر لحضرتك، لكن أُمرت فأقدمت ممتثلًا لأمر». فلاح السائل: ٢١٧. (م).

(٢) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٧٨.

(٣) المصدر نفسه: ١٤٨.

(٤) محاسبة النفس، للسيِّد: ١٠.

(٥) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٧٨.

(٦) محاسبة النفس، للسيِّد: ١٠.

(٧) المصدر نفسه: ٣٨.

ويرى السيِّد أنَّا مأمورون بالمحاسبة: «وأمرني بالمحاسبة، والاحتياط ليوم الدِّين»[1].

ويعتقد السيِّد أنَّه ينبغِي المحاسبة قبل النَّوم؛ لأنَّ النَّومَ موتُ اليقَظة: «فاعلمْ أنَّ النَّوم موتُ اليقظة، ووفاة الجوارح عن حياة الاستِقامة»[2].

(فجعل جلَّ جلالهُ النَّومَ وفاةً، واليقَظةَ بعثًا، وحياةً)[3].

فيرى السيِّد: «أنَّ النَّائم يصير كالأعمى، والأصمِّ، والأخرس، والزَّمِنِ، والمرطوبِ، ويضيع منه عقلُه، وفوائد ما كان يعامل بهِ مولاهُ علَّامَ الغُيوب، وكأنَّه إذا نامَ فقد ضيَّعَ عيالَه، وأموالَه، وحوائجَه، وضروراتِه، وما يدري ما يجري عليها، وما بقِيَ لهُ قدرة على حفظ نفسِه، ولا حفظ شيءٍ من مهمَّاته التي أشرْنا إليها، ولو كان قد أحرزها بالأقفال، والرِّجال؛ فإنَّه إذا نامَ أمكنَ فيها وقوعُ خلافِ ما يُريد على كلِّ حالٍ؛ فإذا نمتَ كأنَّك أُصبتَ بمصائبَ هائلةٍ، ووقعتَ في نكَباتٍ ذاهلةٍ، وما يقدر على جمع شملِك باليقظةِ، وسلامة جوارحِك، وكمال حياتك، وردِّ سمعِك، وبصرك، ولسانك، وعقلك، وسائر ما تشعث بالنَّوم من مُراداتك إلَّا الله جلَّ جلالهُ، وتقدَّس كماله؛ فتُبْ بين يديهِ توبةً صريحةً من كلِّ تقصيرٍ كنتَ قبل النَّومِ عليهِ..»[4].

ولذا السيِّد يؤكِّد المحاسبةَ قبلَ النّومِ[5].

(١) محاسبة النفس، للسيِّد: ١٠.
(٢) الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ١٣٩.
(٣) الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ١٣٩، فلاح السائل: ٢٧٢.
(٤) فلاح السائل: ٢٧١.
(٥) «يا ولدي بعض ما أجراه الله جلَّ جلالهُ على خواطري في أدب الحركات والتصرُّفات، فيحسن أن أذكر ما تحتاج إليه عند منامك، جعله الله جلَّ جلالهُ كنوم ذوي المعارف والمراقبات، وقد شرحنا لك شرحًا شافيًا في كتاب (المهمَّات والتتمَّات).=

وفضلًا عن أنَّ السيِّد كتبَ كتابًا مستقلًّا في المحاسبة؛ فإنَّه تحدَّث عنِ المحاسبةِ في جُملةٍ من كتبِه، وهي: كتاب المهمَّات والتَّتمَّات، وإقبال الأعمال[1]، وفصَّل الحديث عن كيفيَّة المحاسبةِ معَ الملكَينِ: «كيف تحاسب الملكَين في آخر نهارك، وآخر ليلِكَ على تفصيلٍ جليلٍ؛ فاعملْ على ذلك؛ فإنَّهُ من كنوز كرم الله جلَّ جلالهُ الجزيل»[2].

وأيضًا ذكرَ السيِّد المحاسبةَ في كتابيه: (فلاح السَّائل)[3]، و(الأمان)[4].

ويكتبُ السيِّد في كيفيَّة المحاسبةِ، وزمانِها: «أقول: ثمَّ يجلس بين يدَي مولاه الذي أنشأهُ، وربَّاه، ومكَّنه من مساعدة دنياه، وآخرته، ولو ساعة واحدة أواخر كلِّ ليلةٍ، ويحاسب ملَكَي الليل، كما يحاسب ملَكَي النَّهار، ويجتهد في تطهير صحيفته من الآثام، والآثار»[5].

=فاجلس في فراش منامك بالأدب بين يدي مالك وجودك وحياتك وعافيتك وجلوسك وقيامك، تذكَّر ما جرى منك قبل نومك من غفلة عن الله جلَّ جلالهُ، أو تفريط في طاعتك له وخدمتك. وما لم تتب عنه فتب في الحال عنه، فإنَّك بالنوم تصير أسيرًا لا تقدر أن تنفع نفسك قليلًا ولا كثيرًا، ولا أن تدفع عنك في وقت منامك شيئًا من الآفات التي لا يمكن التحرُّز منها، وتترك روحك وكلّ ما أعطاك الله جلَّ جلالهُ من نعمته مستمرًّا لا تقدر أن تدفع عنها.

فصالح مولاك صلح العبد الذليل الحقير الفقير للمولى الجليل العليِّ الكبير، واخشع بين يديه، وسلِّم نفسك وكلّ ما وهبك الله واستودعه الجميع، وقد سلمت من درك التضييع». كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٧٨. (م).

(١) الإقبال: ٤٥٤.

(٢) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٤٨.

(٣) فلاح السائل: ٢١٧-٢٢٠، ٢٧١.

(٤) الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ١٣٩.

(٥) محاسبة النفس، للسيِّد: ٣١.

كما يشير السـيِّد الى أهميَّة المحاسبة في يومَي الاثنين، والخميس؛ لأنَّها ترفع الأعمال إلى أهل البيت عليهم السلام، كما أنَّ الأعمال تصعد إلى السَّماء في هذَين اليومَين(١).

وأشـار السـيِّد إلى نُكاتٍ دقيقة عن السُّـلوك مع الملائكة: «ثمَّ تذكَّر يا ولدي محمَّد جلال مقامه، وكمال إنعامه، بأن جعلك أهلًا لأن يبعث إليك رسُـلًا من ملائكته حفظة بما شرَّفك بهِ من طاعته، وتجميلًا لذكرك بإظهار ما تتقرَّب بهِ من خِدمته بين الملإ الأعلى من خاصَّته؛ وليكونوا لك شـهودًا على مقدَّس حضرتِه يوم اجتماع الخلائق لمحاسـبته، ومـا أجاز في شرعِه الذي ارتضاه شـهادة عبـدٍ على مولاه إلَّا شـهادة ملائكته لك على مقدَّس حضرة ربوبيَّته، و لمن شرَّفه بما شرَّفك من نعمتِه فوفِّهم يوم بلوغكَ، ورشـادك حقّ قصدِهم، وخدمتك بغاية اجتهادِك.

وابـدأْ بالتَّسـليم عليهم كما أشرت إليـه في كتاب (المهمَّات والتتـمَّات)، وصاحبْهم أحسنَ مُصاحبة في سائر الأوقاتِ، ولا يسمعوا منك إلَّا جميلًا، ولا يحضروا معك مجلسًا إلَّا ويرونك عبدًا لمولاك، ومولاهم ذليلًا، ولا تكتب على أيديهم إلى سـيِّدك الذي أنت

(١) «عن رَسُـولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: تُعْرَضُ أَعْمَالُ أُمَّتِي فِي كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّتَيْنِ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ وَ يَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا عبد [عَبْدًا] بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيَقُولُ: اتْرُكُوا أَوِ ارْجِعُوا [أَرْجِئُوا] هَذَيْنِ حَتَّى يَقِيئَا [يَفِيئَا].
.. كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله يَصُومُ الْإِثْنَيْنِ وَ الْخَمِيسَ، فَقِيلَ لَهُ: لِمَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وآله: إِنَّ الْأَعْمَالَ تُرْفَعُ فِي كُلِّ إِثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ، وَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ.
.. قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: مَا مِنْ يَوْمِ إِثْنَيْنِ وَلَا خَمِيسٍ إِلَّا تُرْفَعُ فِيهِمَا الْأَعْمَالُ إِلَّا عَمَلَ الْمَقَادِيرِ.
وروى أيضًا حديثَين آخرَين في أعمال يوم الإثنين والخميس وذلك كلُّه ما يدلُّ على تحقُّق ما رويناه وذكرناه، فينبغي أن يكون الإنسان في يوم الإثنين والخميس متحفِّظا بكلِّ طريق في طلب التوفيق، وإيَّاه أن يكون في هذَين اليومين مهملًا للاستظهار في الطاعة بغاية الإمكان، فإنَّ العقل والنقل يقتضيان أنَّ زمان عرض العبد على السلطان يكون مستعدًّا ومستحفظًا بخلاف غيره من الأزمان». محاسبة النفس، للسيِّد: ١٩. (م).

مفتقـرٌ إليه في أمرك كلِّـه إلَّا كتابًا يصلح أن يعرضَ عليه منزَّهًا ممَّا يكرهه، ويأباه، مملوءًا ممَّـا يحبُّه، ويرضاه، كما جرتْ عـادةُ المملوك الضَّعيف إذا كتب كتابًـا إلى مالكِه الأعظم صاحب المقام العالي الشَّريف؛ فإن غفلتَ في ليلِك، أو نهارك عنه، وآثرت عليه من ليس فيه بدلٌ منه فتُبْ في الحال من غير إهمالٍ، وتصدَّق بصدقةٍ تطفي عنك نيرانَ الذَّنبِ؛ فإنَّ صدقةَ السرِّ تُطفي غضبَ الرَّبِّ»[1].

ويعتقد السـيِّد أنَّ التَّوبةَ جزءٌ من المحاسـبة، كما أنَّه يعدُّ للتَّوبة مراتِبَ، وأنَّ التَّوبةَ أقلُّ مراتب المحاسبة[2].

كما أنَّ السيِّد يرى أنَّه ينبغي على الإنسان مراعاة ذلك قبل يوم حسابه[3].

وتقدَّم أنَّ السـيِّد يربط بين المحاسـبةِ، والمراقبة، ويرى أنَّ الإنسـان في المراقبة معها محاسبة، وفي المحاسبة من المراقبةِ.

ويسـتند السـيِّد بالآيات الكريمة على ضرورة أن يكونا (المحاسـبة، والمراقبة) معًا جنبًا إلى جنبٍ: «الباب الأوَّل فيما نذكرهُ من الآيات التي تقتضي ذكر الاهتمام بمحاسـبة النَّفـس لحفظة الكـرام، قال الله جلَّ جلالـهُ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[4]، وقـال الله جلَّ جلالهُ في كتابـه المجيد: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٤٧.

(٢) «أقـول: فهـذا من أقلِّ مراتب المحاسـبات والتوسُّـل في محو السـيِّئات، فما الـذي يمنع العبد الضعيـف منـه، وما عذره في الإعراض عنه عنـده، وهو يعلم أنَّه إن لم يحاسـب مختارًا منصورًا، حوسب اضطرارًا مقهورًا نادمًا فاحمًا متحيِّرًا ذليلًا مكسورًا». محاسبة النفس، للسيِّد: ٢٧.

(٣) محاسبة النفس: ٢٤.
جـاء فيه: «أقـول أنا: فأيُّ عذر للإنسـان المعدود من أهـل الإيمان في إهماله للاسـتظهار لأجل عرض أعماله قبل يوم حسابه وسؤاله الأعمال». (م).

(٤) سورة الانفطار، الآية: ١٠-١٢.

عَتِيدٌ﴾[1]، و قال جلَّ جلالهُ لقوم يعقلون: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]؛ فوجبَ الاهتمامُ بالتَّحفظ من الآثامِ، والإجرام، وتطهير الصَّحائف التي تقتضي الاحتياط على يد الملائكة الكِرام»[3].

٣-٤. الجهاد

يحتلُّ الجهادُ في فكر السيِّد مكانةً مهمَّةً جدًّا، سواء كان مع العدوِّ الخارجيّ أم العدوِّ الدَّاخليّ[4].

ومن منظار السيِّد ينبغي للعبدِ ذكرُ الله ﷻ، وأن يكون مشغولًا به، ويجاهد فيه حتَّى يصلَ إلى الرُّقيّ.

«ثمَّ تذكَّر يا ولدي محمَّد، أغناك الله جلَّ جلالهُ بتذكاره، وأنواره، وجعل إيثارَك متابعًا لإيثاره، أنَّ الوقت الذي شرَّفك فيه بالعقل، وما هو له أهل، وبعث إليك حَفَظة ملائكته، تحتاج إلى أن تعرفَ أعداءَ مولاك، وأعداءك الذين يريدون أن يحولوا بينَك، وبين نعمته، وعنايته، ويشغلونك عن شرف مراقبتِه، وعن هيبتِه، وعظَمتِه؛ فمنهم الشَّيطانُ الذي أهلَك نفسَهُ، وحسَدَ الذينَ يُرجى لهم السَّلامة، وقصدَهم بالعداوةِ، وقد جعل اللهُ جلَّ جلالهُ لك منه حصونًا منيعةً، ودروعًا وسيعةً؛ فلا تفارقْها:

منها: الإخلاص في طاعة ربِّ العالمين، قال الله جلَّ جلالُه عن هذا العدوِّ اللعين: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[5].

(١) سورة ق، الآية: ١٨.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.
(٣) محاسبة النفس: ١٢.
(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٢٠١-٢٠٢.
(٥) سورة ص، الآية: ٨٢-٨٣.

ومنهـا: الإيمان، والتوكُّل على الله جلَّ جلالهُ؛ فإنَّ مولاك قال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1]؛ فـإن لم تهـدمْ أنـتَ في هذين الحِصنين ثلمةً لهـذا العدوِّ الرَّجيم بالغفلة عن مولاك العظيم، والمعصية لسـيِّدك، ومتابعة العدوِّ الذَّميـم، وإلَّا فإنَّه لا يقدر هو، ولا أعوانه على هدمِ ذلك السُّـور المكين، ولا هدم ثلمة فيه أبدَ الآبدين؛ فاحفظِ السُّورَينِ بالإخلاص، والتَّوكُّل على الله.

واعلمْ أنَّ هذا العدوّ من أحقرِ الأعداء؛ لأنَّه ما قدر أن ينفع بعد الموت من أطاعه، ولا يـضرُّ من عصاهُ، وهو كالكلب الذي للرَّاعي، إذا عرض لك فاطلبْ من مولاك أن يكفيَه عن أذاك، ولا تشـتغل بمحاربتِه بقُدرتك؛ فيبلغ غرضَهُ، ويشـغلك عن خدمتك لمولاك، وسعادتك.

و من الأعداء طبعك ونفسك وما يتفرَّع عنهما من الهوى، وشواغل الدنيا، وطبعك تراب، وكذا كلُّ شاغل في دار الذَّهاب يؤول إلى التراب، فكيف يجوز أن يهون عند ذوي الألباب الكاملة الاشـتغال بالتراب والأمور الزائلة عن عظمـة مولاك الهائلة، ونعمته الشاملة؟»[2].

ويسجِّل السيِّد ما ينبغي للعبدِ في هذه الحالة:

أ. استغاثة النفس:

«واعلمْ أنَّ طبعَك، ونفسـكَ، وكلّ شـاغلٍ لكَ عن مولاكَ يسـتغيث إليكَ بلسانِ الحالِ، ويقولُ لك: لا تلتفتْ إليهم، ويحذِّرونك من الأهوال»[3].

(١) سورة النحل، الآية: ٩٩.
(٢) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٤٨.
(٣) المصدر نفسه: ١٤٩.

ب تحذير العقل:

«والعقل من ورائهم يستغيثُ، ويحذّرك أعظم التَّحذير»(١).

ج النِّداء الإلهيّ:

«ومولاك من وراء الجميع ينكرُ عليك إيثارهم عليه أعظم النَّكير، ويقول لك: كلَّما يشغلك عنِّي فهو حقيرٌ صغيرٌ؛ فكيف تشغل بالحقير عنِ الكبير، ويذكِّرك أن بيدِه كلَّما تحتاج إليه من نفعٍ كثيرٍ، ويسيرٍ»(٢).

يعتقد السيِّد أنَّ الإنسان يرتقِي عِبرَ المجاهدةِ مع النَّفس: «يا ولدي شرَّفك الله جلَّ جلالُه بمجاهدةِ نفسِك، وكلُّ من يشغلك عنه؛ بل قوَّاك قوَّة تدفع عنك مشقَّة الاجتهاد حتَّى تتلذَّذ بكلِّ مبذولٍ في القُربِ منهُ»(٣).

كما يعتقد السيِّد من هذا القبيل المعرفة، ولا يختصر على المجاهدةِ؛ فحسب(٤).

ويرى السيِّد أنَّ الحقَّ ﷻ يعتنِي بالإنسان، كما أشار في كتابِه (كشف المحجَّة) إلى الجِهادِ الخارجيّ ضدَّ العدوِّ(٥).

٣-٥. الإخلاص

أشار السيِّد فيما تقدَّم بخصوص الإخلاص؛ مستندًا في ذلك لقوله تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(٦).

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٤٩.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ٢٠١.
(٤) محاسبة النفس: ١٠.
(٥) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٢٠١-٢٠٢.
(٦) المصدر نفسه: ١٤٨.

فجعل الله ﷻ الإخلاص سورًا مكينًا للإنسان من الشَّيطانِ[١].

عدَّ السيِّد الإخلاص في الأمور العباديَّة، ومنها المراقد الشَّريفة[٢].

كما ينبِّه السيِّد إلى أنَّ أيّ شخصٍ لم يصرفْ نظره عن غير الله ﷻ في العبادات، فهو مفسدٌ لعملِه[٣].

كما يعدُّ الإخلاص في الحجِّ كمال، وشرط صحَّته[٤].

فالسيِّد يربط بين هذا المطلب -النيّة، والإخلاص- من كونه فقهيًّا، وعلاقة بالتَّوحيد، ويعتقد السيِّد في ضوء الروايات من أنَّ الشَّخص إذا أخلص لله ﷻ، ينقادُ لهُ، ويسلِّم لهُ كلَّ شيءٍ، ويخاف منه كلِّ شيء[٥].

وسطَّرَ السيِّد في موضوع الإخلاص في كتبه الشيء الكثيرَ؛ فلاحِظْ[٦].

٣-٦. الإيمان والتَّوكُّل

يُعِدُّ السيِّدُ الإيمانَ، والتَّوكُّلَ في جنب الإخلاصِ من الأهميَّة، وبوصفه نموذجًا يستند السيِّد إلى آيةٍ من القرآن الكريم[٧] من أنَّ التوكُّلَ مثل الإخلاص ينبغي لباطن

(١) الإقبال: ٧١١.
(٢) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٢٠٠.
(٣) «فاعلم أنَّ كلَّ من قصد الحجّ لأجل سواه، فقد ضاع قصده وفسد مسراه، وإنَّما يقصد كلِّ مقصود بالله جلَّ جلالهُ، ولأجل الله جلَّ جلالهُ». كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٢٠٠. (م).
(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٢٠١.
(٥) الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ١٢٨.
(٦) لاحظ على سبيل المثال: إقبال الأعمال ٧١١، كشف المحجَّة: ١٥٤، ١٧٨، ٢٩٣، فلاح السائل: ٦-٧، ٨٩-٩٠، ٢١٦، الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ١٢٨، ١٤٦.
(٧) سورة النحل، الآية: ٩٩.

الإنسان المحافظة عليها، ويوصِي السيِّد الاستمرار عليها[1].

ويلاحَظ أنَّ السيِّد يوصي ابنَه محمَّدًا بالتوكُّل على الله ﷻ، حتَّى في مراجعة الطبيب في علاج جسمِه[2].

وذُكِرَتْ نماذج من توكُّل السيِّد في سيرته العمليَّة، وكتب السيِّد عن التوكُّل في آثارِه مثل: (فلاح السَّائل)، و(الأمان)[3].

وستناول المنازلَ العرفانيَّة وتطبيقها في نظر السيِّد، كما يأتي تفصيلُه.

٤- معالم العِرفان العمليّ

نذكر في نهاية هذا الفصل جملةً من الأفكار العرفانيَّة للسَّيِّد، مع الإشارة إلى معالمه:

٤-١. تعدُّ المعرفة سابقةً على العرفان العمليّ؛ فالنُّقطة الجوهريَّة في العرفان العمليّ الإسلاميّ يأتي بعد معرفة الصِّفات، والذَّات للوصول إلى الحقيقة المطلقة، وهذه العلامةُ للعرفان العمليّ تميِّزهُ من العِرفان الآخر الذي يتمُّ عبر الارتباط بالأرواح، وما إلى ذلك.

وتعدُّ معرفة الله ﷻ من أصول العرفان العلميّ، ووجه من وجوه التَّمايُز بينه وبين العرفان الكاذِب.

٤-٢. ينبغي أن يكونَ نظامُ السَّالك عندما يدرك مقامه، ومكانته، وأنَّه أمامه تعالى ﷻ يُحافظ دائمًا على الحُضور الدَّائم، ويراقب جميعَ حركاتِه، وسكنَاتِه الظَّاهريَّة،

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٤٨.
(٢) المصدر نفسه: ١٧٧.
(٣) لاحظ: فلاح السائل: ٦٥، ١٤٠، ٢٧٣-٢٧٥، الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ١٢٤.

والباطنيَّة، وجعل إرادتـه إرادةَ الله ﷻ، ويكون نظرُه، واعتقادُه أكثرَ عباد الله ﷻ، عزيز الوجود.

التوحُّد[1]:

إنَّ عِلَـمَ السَّـالك بحضـور الله تعـالى، وإحاطته، واطِّلاعـه، يُقرِّب السَّـالكَ من منبـع الكَينونة، والتَّحقُّق، ويُبعده عن التشـتُّت، والاضطراب اللذَين يشـكِّلان ماهيَّة عـالم الطَّبيعة؛ فهو يجعل السَّـالكَ ضيفًا عـلى الإدراكات، وتلقِّيات مـا وراء الطبيعية، ويُعـدُّه لولـوج العلـومِ، والحقائـق الأُخرويَّـة التـي تتَّصـف بالجمعيَّـة، والاندماج، والوحدانيَّة.

وهذه السِّمةُ أسمى من درجة التركيز الذِّهنيّ المعمول به في المناهج العلميَّة.

٤-٣. الارتباط بالشَّريعة والتَّكاليف الإلهيَّة

من جملة خصائص، ومعالم العرفان العمـليّ: الامتثال والعبوديَّة، والتمحوُّر حول التَّكليف، والالتزام بالشَّريعة؛ فالسَّـالك الذي عرف الله ﷻ، واطَّلع على فلسفة خلقِه،

(١) التوحُّد في الاصطلاح العرفانيّ: هو انصراف القلب إلى الحقِّ وحده، وانفراد الإنسان بحضور الله تعالى في باطنه، حتَّى يستـولي ذِكره على القلب، ويقطـع العارف التعلُّق بالمخلوقات ولذَّاتها، فلا يلتفت إلى غير الله، ويغدو مقصده وهمُّه الأوحد هو الوصول إليه سبحانه.
تنبيـه: هذا المفهـوم ليس مرضًا ولا اضطرابًا نفسـيًّا، بل هـو مقام روحيّ يتحقَّـق للعارف بعد مجاهـدة النفس وتهذيبهـا. فمصطلح التوحُّد هنا اصطلاح صوفيّ خالـص، يُراد به حالة روحيَّة خاصَّة، ولا يمتُّ بصلة إلى اضطراب التوحُّد الطبِّيّ المعروف.
ويجدر التنبيه إلى أنَّ هذا المعنى وارد في كتب العرفان والسلوك أكثر من ورود لفظ التوحُّد نفسه، وقد اسـتخدم العارفـون ألفاظًا أخرى للدلالة عليـه، مثل: الانفراد، الوحـدة، التجرُّد، الفناء، والجمع. لاحظ تفاصيل ذلك على سبيل المثال، في أبواب: الخلوة، والاعتزال والوحدة. الرسالة القشيريَّة، قوت القلوب، وغيرهما من الكتب والمعاجم العرفانيَّة والصوفيَّة.

واكتسب معرفة نفسه أيضًا، يجب أن يعامِل الله تعالى كما ينبغي، ويقبل التَّكليف، ويلتزم بالشَّريعة التزامًا عمليًّا، ولا يرى أهلًا للعبادة إلَّا حضرته جلَّ وعلَا.

وهـذه الخصيصة تُميِّـز العرفان العمـليّ من أنـواع العرفان التي تُشـيع اللامبالاة، والابتـذال، والتي ترى نفسـها في بعض المراحل مسـتغنيةً عن التَّكاليـف الإلهيَّة، مثل الصَّلاة.

وقد جاء في كلمات السيِّد ابن طاووس في هذا المجال: «قد عرفنا أنَّ شريعة الإسلام ما عذر أحدًا من عقلاء القادرين في ترك الصَّلاة»[1].

٣-٤. التَّهذيب التنظيميّ

إنَّ السَّـالك، بإدراكـه مقامـه وموضعـه بين يـدي الله ﷻ، يحصل عنـده حضورًا دائـمًا مـن أنَّ الله تعالى يراقبُه، وهـذا الاعتقاد يُنظِّم جميـع حركاتِه، وسـكنَاتِه الباطنيَّة، والظاهريَّة، ويجعلها متَّصلةً بإرادته تعالى، ويُكسبه في نظر عباد الله مكانةً عاليةً، ووجودًا عزيزًا.

٤-٥. تأمـين الاحتياجـات الرُّوحيَّـة؛ فتعـدُّ المسـائل المعنويَّة للإنسـان من أهمِّ مسـائل العرفان العمليّ، بمعنى: أنَّ الفقرَ الرُّوحيَّ لديه شـديدٌ، ومن هُنا يريد أن يسـدَّ هذا الاحتياج المعنويّ بطرائق التَّكامُل بنحوِ البقاء الدَّائم في الدُّنيا، والأُخرى.

وهذه العلامةُ للتَّأمين تحرج من الكذِب، والاتِّجاهات الكاذبة الباطنيَّة الرَّائجة.

ولـذا يسـعى لتأمـين الحاجـات الروحيَّة، وسُـبل كمالـه بشـكل دائـمٍ في الدُّنيا، والآخرة.

(١) الطرايف في معرفة مذاهب الطوائف: ١/ ٢١٧.

وهذه الخاصيَّة تُخرج الإنسانَ من التأمين الزَّائف، وعدم الأمان الذي يُروَّج له في الاتِّجاهات الباطنيَّة الكاذبة.

٤-٦. الغُربة، يحصل للسَّالك بعد الوصولِ، والتقرُّب مدارك من سنخٍ آخر؛ فما فهِمَهُ من أشياء، لا يفهمه الآخرون؛ ولذا فهو يحسُّ كثيرًا بالغُربةِ، وعنده الدُّنيا سِجنٌ.

٤-٧. التوقيفيَّة، مراعاة الأمور الأربعة، وهي: الزَّمان، والمكان، واللسان، والمعنويَّة، في العرفان الإسلاميّ من مميِّزات السُّلوك العمليّ، فهي تُلقي بظلالها على جميع أصول السُّلوك.

٤-٨. استمرار السَّالك، ينبغي للسَّالك الانشغال دائمًا بالله ﷻ، وهذه العلامة والميزةُ تميِّزهُ من الاتِّجاهات العبثيَّة، واللاهدفيَّة لها.

«إنِّي عزمتُ على الانقطاع من كلِّ شيءٍ يشغلُني عن ربِّ العالمين عن الخلائق أجمعين»[1].

٤-٩. معرفة الطَّريق؛ فمِنَ الضَّروريّ في هذا الطَّريق من وجود أستاذ كاملٍ؛ فإذا لم يكن هناك قائدٌ مرشدٌ مُرادٌ، لا يتمُّ طيُّ المراحل، ولا تكون من أتباع الخضر.

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٦٣.

الفصل الثَّالث

السِّيرةُ والسُّلوك العمليّ للسَّيِّد

يعدُّ سُلوك السيِّد، وما أنشأه من الدُّعاء، والسِّيرة العمليَّة لهُ شاهدةٌ على أنَّه لم يُظهرْ فضلًا، وموعظةً لغير الله عزَّ وجلَّ؛ بل لغرض المعرفة، والتقرُّب لله عزَّ وجلَّ وُضِعتِ التَّعليمات الدينيَّة.

والغرض من هذا الفصل: الأداة التي بيَّنها في تجربته في العمل، وهذا مع سيرِه، وسلوكه العمليّ المطابق.

وأُشير في هذا الفصل إلى ثلاثة عنوانات: ١. التَّوحيد، ٢. السُّلوك، ٣. إنشاء منشأ الدُّعاء، ونذكر أمثلةً من سيرته العمليَّة.

١- التمكُّن في التَّوحيد

يعدُّ السيِّد متوغِّلًا في التوحيد؛ فيلاحَظُ في آثاره مشاهدة الله المتعال.

ففي الفصل الأوَّل، التَّوحيد، تقدَّم من أنَّ العلَّامة ذَكَر عن أُستاذه السيِّد القاضي رحمهما الله من أنَّ السيِّد، وبحر العلوم، وابن فهد الحِلِّيّ من الشَّخصيَّات التي لهم تمكُّنٌ في التَّوحيدِ[1].

(١) أدب الحضور: ٢٧. (فارسيّ).

ويلاحظ في مسير حياة السيِّد يجعل من جميع الجزئيات تفويضها، واختيارها إلى تدبير الله ﷻ، ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾[1].

من جُملة المناهج الأساسيَّة في العرفان الحقيقيّ مثل السيِّد في السلوك العمليّ، وهو أنَّ لهُ خصوصيَّة في قبال الله ﷻ، وأنَّهم لا يعتقدون بشي، ومنشأ هذا الاعتقاد للرُّؤية الكونيَّة التوحيديَّة للعالم وقوَّة إيمانهم ترجعُ للقول: هو المالك على الإطلاق؛ فهؤلاء يبحثون عن وجودٍ جديدٍ، وشديدٍ، وتذوَّقوا طعم: (الله أكبر)، ولم يتوجَّه إلى غيره، كما قال سيِّد الشُّهداء الإمامُ الحُسين عليه السلام: «ابْتَدَأْتَنِي بِنِعْمَتِكَ قَبْلَ أَنْ أَكُونَ شَيْئًا مَذْكُورًا»[2].

ويقرّر السيِّد في دعائِه، والثَّناء لله ﷻ بعنوان المالك: «الثناء الحقُّ لله جلَّ جلالُه مالكِ دُنياي، ومَعادِي، والهادي إلى إصدارِي، وإيرادي، واللهم لي صواب ما يفتحُه من مُرادي»[3].

ويكتب السيِّد عن المعرفةِ، والسُّلوك في الحياة المادِّيَّة مع المالك الرَّحمن ﷻ: «يتضمَّن حال بدايتي، ومعرفتي، وطلبي الأولاد من مالك رحمتي، وفضل اختيارِه جلَّ جلالُه لي ولادتهم من أمَّهات الأولاد، وتسليكه جلَّ جلالهُ لي سبيل سعادات الدُّنيا، والمعاد»[4].

كما أنَّ السيِّد يوكِّل في تدبير أموره، وآماله لله ﷻ: «في دبير آمالي»[5].

(١) سورة النحل، الآية: ٧٥
(٢) إقبال الأعمال: ١/ ٣٤٠.
(٣) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٨٨.
(٤) المصدر نفسه: ١٩٤.
(٥) المصدر نفسه: ٢١٣.

ويعتقد السيِّد أنَّ الله ﷻ يسلك بالإنسان سبيلَ السَّعادةِ: «وتسليكه جلَّ جلالهُ لي سبيلَ سعادات الدُّنيا، والمعاد»[1].

وعندما تكون النظرة الكونيَّة العرفانيَّة من أنَّ جميع الأشياء تحت تدبيره ﷻ؛ فلا تفوت عنده بينها[2].

ومن الأمثلة في حياة السيِّد أمانته عند الله ﷻ، وتوكُّله على مالك يوم الدِّين، ما وقع لهُ في الحجِّ، وهو شابٌّ: «قلت أنا، وأعرف أنَّني أبدًا ما أودعت الله جلَّ جلالهُ شيئًا؛ فضاع، ولو كان قد ضاع شيء ممَّا أودعته لأجل ذنبٍ يكون قد جنيتُه؛ فإنَّني إذا طلبت من رحمته إعادة وديعته ردَّها عليَّ، وما يُخجلُني، ولا يقف مع الذَّنب الذي اقتضى ضياعَها من حرز رعايتِه، ولقد توجَّهت الحجَّ سنة سبع و عشرين وستمائة، وأودعتُ كلَّ ما صحِبني في حفظ حياطة المراحم الإلهيَّة؛ فسقط سوط لوز مرٍّ كان معي مشدودًا في الكجاوة، ونحن نسير ليلًا، فلمَّا نزلْنا ضاحي النَّهار، فقدتُ السَّوط؛ فقُلتُ لرجلٍ علويٍّ صديقٍ كان معنا، يُقال له عليّ بن الزّكيّ رحمه الله: قد سقطَ السَّوط؛ فاطلبْه؛ فتعجَّب من قولي: اطلبْه، وقال: كيف أطلب سوطًا قد سقط البارحة في سرعة مسير الحاجِّ؟.

فقلتُ: لأنَّني كنت أودعتُ ما معي كلُّه لله جلَّ جلالُه، وهو جلَّ جلالهُ يحفظه؛ فلم يقبلْ، وأخذ إبريقًا، ومرَّ يستعمل ماءً خارجَ الحاجِّ؛ فجاء، والسَّوط في يدِهِ؛ فقلتُ: كيف وجدته؟.

قال: وجدتُه على ظاهر فخارة رجلٍ معلَّقًا.

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٩٤.
(٢) فتح الأبواب: ١٦٤.

فقلتُ لهُ: هذا السَّـوط لفلانٍ سـقط البارحة في المسـير؛ فقال: نعـم، وجدناهُ ليلًا فحملنـاهُ، خُـذْ، واحملْـه إليه، ولو ذكرت ما تجـدَّد لي من أمثالِ هذا ضجـرتَ بوقوفِكَ عليه»[1].

ويذكر السـيِّد قصَّةً لولدِه مُشابهةً لهذه الحكاية، عندما سمع بولادة محمَّد: «واعلم: يا ولدي محمَّد زيَّن الله جلَّ جلالُه سرائرَكَ، وظواهرك بموالاة أوليائِهِ، ومعاداة أعدائِه، أنَّني كنتُ لـمَّا بلغَني ولادتُك بمشـهدِ الحُسـين عليه السلام في زيارة عاشوراء.. فقمتُ بين يدي الله جلَّ جلالُه مقام الذلِّ، والانكسـار، والشُّـكر لما شرَّفني به من ولادتك من المسـار، والمبار، وجعلتُكَ بأمرِ الله جلَّ جلالهُ عبدَ مولانا المهديّ عليه السلام، ومتعلِّقًا عليه»[2].

ثـمَّ يقول: «وقد احتجنا -كم مرَّة عند حـوادث حدثتْ لك- إليه، ورأيناه في عدَّة مقامـات في مناماتٍ، و قد تولَّى قضاء حوائجك بإنعـامٍ عظيمٍ في حقِّنا، وحقِّك لا يبلغ وصفي إليهِ»[3].

فضـلًا عن هذا، ذكرنا في مـا تقدَّم بعنوان: أهل البيت عليهم السلام، فيما يوصي السـيِّد ابنه محمَّـد من الدُّعاء للإمـام عجل الله تعالى فرجه الشريف، وتقدُّم حوائجه عـلى حوائجك، وتتصـدَّق عنه: «وقدِّم حوائجَه على حوائجِك عند صـلاة الحاجات، كما ذكرناهُ في كتاب (المهمَّات والتتمَّات)، والصَّدقة عنهُ قبل الصَّدقة عنك، وعمَّن يعزُّ عليك، والدُّعاء له قبل الدُّعاء لك، وقدِّمه في كلِّ خيرٍ يكون وفاءً له، ومقتضيًا لإقباله عليك وإحسانه إليك»[4].

ويلاحَظُ أنَّ السـيِّد حتَّى في كتابته يتوجَّه بكلِّ وجـودِه إلى الله عزَّ وجلَّ: «قد شرعت في

(١) فلاح السائل: ٢٧٣.
(٢) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٢٠٨.
(٣) المصدر نفسه: ٢٠٩.
(٤) المصدر نفسه.

تأليف كتاب سـمَّيتُه (مسـالك المحتاج إلى مناسك الحاجِّ)، وسـوف أذكر فيه بالله جلَّ جلالهُ، ومن الله جلَّ جلالُه، و لله جلَّ جلالهُ، ما ينبغي إذا حججتُ إن شاء تعالى تعمل عليه»[1].

كـما يلاحظُ أيضًا في كتابتِه يلحـق بعد ذكر الله: جلَّ جلالُه، وينقل الشـيخ عبَّاس القمِّيّ عن أستاذِه المرحوم المحدِّث النُّوريّ في هذا السِّياق: «وكان رحمه الله من عُظماء المعظِّمين لشـعائر الله جلَّ جلالهُ، لا يذكر في موضع من تصانيفه الاسم المبارك إلَّا ويعقبه بقوله: جلَّ جلالُه»[2].

ولا يخفى أنَّ المُسلمين يذكرون اسم الله جلَّ جلالُه قبل أكل الحيوان، وذبحه؛ ولذا وردَ في الشَّريعة النَّهي عن الأكل من دون ذِكر الله عليه[3].

ويقول السـيِّد ابن طاووس في كتابه سـعد السـعود للنفوس منضود: «من أسرار قولـه تعـالى في تحريـم ما أهلَّ به لغـير الله في هذه الآية التـي في المائدة أنَّ الـذي أهلِّ به لغـير الله من الذبائـح لمعاصي الله ولمجرَّد اللذَّات الشـاغلة عـن الله، وللثناء من الناس وللتجـارة بالغنـى للمسـلمين، ولغـير ذلك عـن كلِّ ما لا يُـراد به غـير ربِّ العالمين، كيـف يكون حاله؟ هل يلحق بآية التَّحليل أو التَّحريـم، والظَّاهر يتناول الجميع، وهو شـديد على من يسـمعه، وربَّما أنكره لمجرَّد الذي بالغ بالورع على كلِّ حالٍ يقتضي ترك ما لا بأس به حذرًا ممَّا به البأس، ولو كره النَّاس»[4].

ويكتـب الشـيخ المحدِّث عبَّـاس القمِّيّ: «وقريب منـه ما نقله الشـيخ البهائيّ في

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٢٠١.
(٢) الفوائد الرضويَّة في أحوال العلماء المذهب الجعفريَّة: ١/ ٥٤٦.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) سعد السعود للنفوس: ١٢٨.

كشكوله: اختلطت غنم الغارة بغنم أهل الكوفة؛ فتورَّع بعض عبَّاد الكوفة عن أكل اللحم، وسُئِل كم تعيش الشَّاة؟ قالوا: سبع سنين، فترك أكلَ لحم الغنم سبعَ سنين»[1].

٢- سلوك منشأَي الدُّعاء

يَعدُّ السيِّد طريق الوصول مركبًا من العبوديَّة، وسلوك منشأي الدُّعاء، ويناجي بأدعية العِشقِ، ولعلَّ من هنا في ملاقاته وتشرُّفه بالإمام الحجَّة عجل الله فرجه الشريف، وهو في حال دعائه ومناجاته: «و كنتُ أنا بسرٍّ من رأى؛ فسمعتُ سحَرًا دعاءَه عليه السلام؛ فحفظت منه عجل الله فرجه الشريف من الدُّعاء لمن ذكره من الأحياء، والأموات، وأبقهم، أو قال: وأحيهم في عزِّنا، وملكنا، وسلطاننا، ودولتنا، وكان ذلك في ليلة الأربعاء ثالث عشر ذي القعدة سنة ثمان وثلاثين وستمائة»[2].

وتعدُّ من العمليَّات الصَّعبة في السُّلوك العمليّ، هو سلوك دعاء المنشأين؛ فكتبهُ مشهودة ما فيها من أهميَّة لهذه المسألة، هكذا يقول بعض العظماء: «كلُّ شخصٍ خبير عبر كتبهِ السيِّد ابن طاووس يتَّضح له السلوك العمليّ للسَّيِّد ابن طاووس المراقبة، والمحاسبة، والصِّيام، والدُّعاء»[3].

ويوصي السيِّد أن يحمل المسافر كتب الدُّعاء في السفر، ونحوه من السُّلوك العمليّ «وينبغي أن يصحب معه كتابنا المسمَّى المنتقى في العوذ، والرقى؛ فإنَّ فيه ما يمكن أن يحتاج الإنسان إليه عند الأمراض، والحوادث التي لا يأمن المسافر هجومها عليه»[4].

(١) الفوائد الرضويَّة في أحوال العلماء المذهب الجعفريَّة: ١/ ٥٤٦.
(٢) مهج الدعوات ومنهج العبادات ١: ٢٩٦.
(٣) تحفة الملوك في السير والسلوك: ١٨.
(٤) الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ٩١.

ويقـول: «أقول: ولـمَّا احتاج الإنسـان في أسـفارِه إلى كتاب مـروِّج لأسراره، مثل كتـاب الفـرج بعد الشـدَّة، وكتـاب المنامـات الصَّادقات، وكتـاب البشـارات بقضاء الحاجات على يد الأئمَّة عليهم السلام بعد المهمات»[1].

وتقدَّم أنَّ ثمَّة مناسـبات زمانيَّة ينبغي تجاوزها بنجاحٍ[2]، ولعلَّه من هنا كتبَ كتابَه (فلاح السـائل ونجاح المسـائل) لشـهورِ رجب، وشعبان، وشـهر رمضان: «وكان لي أشـغال غير هذا الكتاب تقطعني عـن تصنيفِه، ولو لم يكـن، إلَّا أنَّني شرعتُ في تأليفه في شـهر رجب، وشعبان، وشهر رمضان، ولهذه الشـهور وظائف كثيرة تستوعب أكثر أوقات الإنسان»[3].

وتظهـر أهميَّة التضرُّع في نظر السـيِّد، وتوجُّهه بهذا المهمّ أمـام الله جلَّ جلالُه، عبرَ مـا كتبَه لابنِه محمَّد: «فاذكـرْني يا ولدي بين يديهِ، فقد ذكرتُـك والله جلَّ جلالهُ عظيمًا، وسـلَّمتُك مـن يدي إليـه، ولا عرفت، ولا سـمعت أنَّ والدًا كرَّر، وأكثـر من التضرُّع إلى الله جـلَّ جلالُه لأجل ولـدٍ يعزُّ عليهِ، أبلغ ممَّا خاطبـتُ في طلبِك قبل وجودِك، وفي مهماتـك للدُّنيا والآخرة بعـد وجودِك، ولما تحتاج إليه، ولأجـل إقبالِه عليكَ، وإقبالك عليه، وقدومك عليه»[4].

وينبِّه السيِّد أنَّ يراعَه في الدُّعاء من الحال وتوجُّه القلب، فأفضلُ الأدعية التي فيها حضـورُ القلب: «فليكن دعاؤك في هذه الأمور مشروطًا بما يُناسـب حالك، ولا تطلق

(١) الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ٩١، فإنَّ هذه الثلاثة كتب تكون مقدار مجلَّد واحد، وهي كثيرة الفوائد. الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ٩٢.
(٢) الإقبال: ٦٨٢.
(٣) فلاح السائل: ١٥.
(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٢٠١.

بقلبك، ولفظك ظاهر معاني اللفظ المذكورِ»[1].

«فليكن قصدك في أمثال هذه الدَّعوات موافقًا لما يقتضيهِ حالُك من صواب الإرادات، واحذرْ أن تكون لاعبًا، ومستهزئًا، وغافلًا في الدَّعوات»[2].

ثمَّ يلفت السيِّد النَّظَرَ من أن يقدِّم الدَّاعي حوائج العترة عليهم السلام قبله، والسَّبب في ذلك: «وإنَّما قلنا: تُقدَّمُ حوائج الصَّفوة من العترة النبويَّة؛ لأنَّ بقاء الدُّنيا، وأهلها بمن يكون لطفًا، وقطبًا، وحافظًا للأمانات الإلهيَّة، والمقامات المحمَّديَّة؛ فإذا كنتَ محفوظًا بواحدٍ على مُقتضى اعتقادِك؛ فكيف تقدِّم حوائجَك على حوائجِه؛ بل يجب أن تقدِّمَ حوائِجَه على حوائجِكَ، ومُرادَهُ على مُرادِك»[3].

«ولو كنتَ عارفًا بمقدارِ حقِّ الله تعالى بهم، وحقِّهم عليك بالله جلَّ جلالُه، وما يضيع من حقوقِهم بالليل، والنَّهار كنت قد رأيت ما تهديه يحتاج إلى اعتذارٍ»[4].

٣- الاستِخارة

نلاحظُ بشكلٍ لافتٍ للنَّظَر الاستخارة في آثارِ السيِّد، وفكره، وسيرتِه العمليَّة، واهتمامِه بها[5]، وكتبَ كتابًا مستقلًّا في هذا المجال اسمه (فتح الأبواب بين ذوي الألباب وبين ربِّ الأرباب)؛ وهذا يدلُّ على اهتمامٍ خاصٍّ من السيِّد بالاستخارة؛ فالسيِّد يستند في هذا الكتاب إلى الآيات، والرُّوايات للدِّفاع عن الاستخارة، ويأتي بأقوال الآخرين لتأييد هذا الدِّفاع.

(١) إقبال الأعمال ١: ٨٩.
(٢) المصدر نفسه: ٨٩.
(٣) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ٣٢٩.
(٤) المصدر نفسه: ٢٢.
(٥) ينظر: كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٢٠٠-٢٠١، ٢٠٤-٢٠٥.

ويَعُدُّ السيِّد ابن طاووس الاستخارة فتحًا إلهيًّا، وفتح الفتوح، كما بيَّن السيِّد في هذا المجال طريق الاستفادة من الاستخارة، ويذكر طرفًا من تجرِبته في هذا المضمار[1].

ويذكر السيِّد دليلًا في سبب توجههِ للاستخارة: «اعلمْ أنَّني وجدتُ الموصوفين بالعقل، والكمال يوكِّل أحدهم وكيلًا يكون عنده أمينًا في ظاهر الحال، ولا يطَّلع على سريرته؛ فيسكن إلى وكيله في تدبيره، ومشورته، ويشكره من عرف صلاح ذلك الوكيل، ويحمدونه على التَّفويض إلى وكيله فيما يعرفه من كثيرٍ، وقليلٍ، وما رأيت أنَّ مسلمًا يجوز أن يعتقد أنَّ الله جلَّ جلالُه في التفويض إليه، والتوكُّل عليه بالاستخارات، والمشورات، والعمل بأمرهِ المقدَّس دون وكيل غير معصوم في الحركات، والسَّكَنات، ووجدتُ الموصوفين بالعقل، والفضل يصوِّبون تدبير من يشاور أعقل من في بلده، وأعقل من في محلَّته، وأعلم أهل دينه، ونحلته مع أنَّ ذلك الذي يشاور في الأشياء لا يدَّعي أنَّه أرجح تدبيرًا من الملائكة، والأنبياء؛ بل ربَّما يكون المستشار قد غلطَ في كثيرٍ من تدبيراته، ونَدِمَ على كثيرٍ من اختياراتِه، و مع هذا فيشكرون هذا المستشير، ويستدلُّون بذلك على عقله، وسداده، ويقولون هذا من أحسن التدبير، أ فيجوز أن يكون في المعقول، والمنقول مشاورة الله جلَّ جلالهُ، وتدبيره لعبده دون عاقل البلد، وعاقل المحلَّة، وعالم النِّحلة كيف يجوز أن يعتقد هذا أحدٌ من أهل الملَّة»[2].

ويمكن أن نشير إلى جملةٍ من الملاحظات على الاستخارة:

٣-١. إنَّ حقيقة الاستخارة هي طلبٌ من الله جلَّ جلالُه الخيرَ الشرعيّ، والعقليّ، وتختلف الرُّوايات في طريقة الاستخارة، وليس من اللازم من نتيجة الاستخارة، ولكن ليس من الأدب عدم الاعتناء بها.

(١) يراجع: كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٥٧، ١٩٥.
(٢) فتح الأبواب بين ذوي الألباب وبين ربِّ الأرباب: ١٢٧-١٢٨.

٣-٢. يوصى أن تُستعملَ الاستخارةُ عادة في حالة وجود الحيرة، ولا يجد طريق رفع هذه الحيرة بالمراجعة للعقل، وظاهر الشَّريعة، وأيضًا بالطَّرائق الأخرى، مثل: المشورة، والنُّجوم، والأعداد، والمنامات، والارتباطات بالأرواح.

في عقيدة السيِّد أنَّ الاستخارة في الأماكن غير المعلوم صحَّتُها[1].

مع أنَّ السيِّد يعطي أهميَّةً خاصَّةً للاستخارة؛ فلا يرى من المناسب الاطِّلاع على أسرار الاستخارة، ويعلم من ذلك عقيدته بالاستخارة في زمانٍ معيَّن؛ فلا اطِّلاع لتلك الأسرار.

٣-٣. إنَّ متعلّق هذا التُّحيُر في مستوى العموم، والعُرف يخاف من ضررٍ مادِّيٍّ، ودُنيويّ؛ ليتَّضح عاقبة ما صمَّم له، وقليلًا ما تتعلَّق بالأمور الأخرويَّة.

ولكن متعلّق الاستخارة في المستوى العالي، والرَّاقي في التحيُّر في أمرِ أهمّ من الأمور الماديَّة، والدنيويَّة؛ بل أحيانًا أكثر أهميَّة من الأمور الأخرويَّة؛ فأهل المعرفة في تصميمهم، وإرادة الإذن من الله جلَّ جلالُه؛ فإنَّهم يبحثون عن رضايته.

وربَّما بعض النَّاس من دون دافعٍ عقليٍّ، أو شرعيّ، بنحوٍ مُباشَرٍ، أو غير مُباشَرٍ، أو شرعيّ، وعقليّ، ولكن يحبُّون أن يأتيَ الجواب جيِّدًا دائمًا، وإذا لم يكن يوافق ميلَهم يكرِّرون الاستخارةَ؛ فجملةٌ منهم يعتقدون أن تأتي الاستخارة على توقُّعهم منها، وهذا هو الخير بنظرهم، وإذا جاءتْ بنحوٍ جيِّد يصمِّمون على العمل بمُقتضاها، وعندما يُبتلون بعد ذلك، ولم يأتِ لهم خيرٌ يشكِّكون في أصل الاستخارة، وتصبح عندهم كدورةٌ.

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٧٧.

ولكـنَّ أولياء الله ﷻ؛ فـإنَّ ذهنَهم، وخيالهـم، ومعرفتهم منزَّهةٌ عـن هذه الأمور الدنيويَّـة، والأفكار الملوَّثة؛ فالمهمُّ بالنِّسـبة لهم، الحصول عـلى الإذن، والرِّضا الإلهيّ، والثَّبات على مسـار تدبير الله، وتربيته، وزوال الحيرةِ في هذا الطَّريق؛ بل لا فرقَ عندهم أساسًـا بعد الاسـتخارة ماذا يأتي بها؛ فـما كانتِ النَّتيجة هـي المطلوبـة؛ فيقبلونها قلبًا، وقالبًا.

وتقدَّم أنَّ السيِّد يعطي أهميَّةً للإذن، والاستخارة تمثِّل الأساس لذلك؛ فهي كاشفةٌ عـن الإذن الإلهـيّ، وفي نظره أهـم شيء ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1]؛ فالسـيِّد في دفاعِـه عنِ الاسـتخارة، يقرِّر بعد نقلِه لقـول الإمام الصَّادق عليه السلام: «قَـوْلَ الصَّادِقِ عليه السلام: **لَا أُبَالِي إِذَا اسْتَخَرْتُ اللهَ عَلَى أَيِّ طَرَفَيَّ وَقَعْتُ**. وهذا عظيمٌ في جلالة الاستخارة عند من عرف ما تضمَّنه من شريف المعنى، والعبارة، وأمَّا أمر مولانا الصادق عليه السلام بالاستخارة، وقسمه بالله ﷻ إنَّ الله جلّ جلالُه يخيِّر لمن استخارَه»[2].

ومن هنا يرى السـيِّد أنَّ الخاطر بالاسـتِخارة موافقًا للمراحم الربَّانيَّة: «واعتبرت هـذا الخاطـر بالاسـتخارة الصَّادرة عن الإشـارة الإلهيَّـة؛ فرأيتُه موافقًا لمـا رجوتُه من المراحم الربَّانيَّة»[3].

٣-٤. تقدَّم أنَّ السـيِّد له صديُق، السـيِّد محمَّد الآويّ[4]، ويذكر نوع الاستخارة؛ فالسـيِّد الآويّ ينقـل روايـةً عن الإمـام المهـديّ عجل الله فرجه[5]، وربَّما طريق السـيِّد، والسـيِّد محمَّـد الآويّ الدُّعاء، والتوجُّه للاسـتخارة نحو دسـتور سـلوكيّ تعلَّمـوهُ من الامام

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٢.
(٢) فتح الأبواب بين ذوي الألباب وبين ربِّ الأرباب: ١٦٤.
(٣) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٤٥.
(٤) فتح الأبواب بين ذوي الألباب وبين ربِّ الأرباب: ٢٧٢.
(٥) بحار الأنوار: ٥٣/ ٢٧٢، أعيان الشيعة: ٩/ ٤٠٥، خاتمة المستدرك: ٢/ ٣٣٤.

الحجَّة عجل الله فرجه الشريف[1]، وثمّة إشارة إلى ذلك.

يوصي السيِّد فضلًا عن أخذ كتب الأدعية في السّفر، يصطحب معه جملةً من الكتب الحديثيَّة المعنويّة، والعرفانيَّة، وما يدلُّ على علاقته بالعرفان: «احتاج الإنسان في أسفاره إلى.. كتاب الإهليلجة[2]، كتاب المفضَّل بن عمر[3] مصباح الشَّريعة، ومفتاح

(١) أرجع بعض العلماء المعاصرين (الشيخ اية الله الكراميّ) طريقة الاستخارة بنحوٍ عامٍّ إلى اثنين: الاستخارة الواردة في الكتب الفقهيَّة، وهي متنوِّعة، وإذا كان بالقرآن، ففيها نحو استنباط، الذي يحتاج إلى فهم القرآن. معبري با اسمان: ٦٣ (فارسيّ).
هذا النحو من الاستخارة يمكن لكلِّ شخص، ولكن يحتاج فيها إلى فهم أدبيَّات القرآن، وله معرفة في تفسيره.
النحو الآخر للاستخارة يحتاج فيه إلى الإذن الباطنيّ. معبري به اسمان: ٦٣.
هذا النوع من الاستخارة غالبًا يستعمل للآخرين، ولا اختصاص له بالقرآن، وليس من سنخ الاستنباط، بل هو عطيَّة وهِبة، ويعدُّ من معجزات الشيعة، ويمكن أن يحصل هذا التلقِّي عبر النوم، أو اليقظة للبعض. فمن يستخير للآخرين أن يكون مأذونًا، ومن الشهادة شاهدان عدل أقرب. معبري به اسمان: ٦٣.

(٢) و هو كتاب مناظرة مولانا الصادق عليه السلام للهنديّ في معرفة الله جلَّ جلالهُ بطرق غريبة عجيبة ضروريَّة، حتَّى أقر الهنديّ بالإلهيَّة والوحدانيَّة. الأمان: ٩١.
كتاب الإهليلجة في التوحيد: رسالة من الإمام الصادق أبي عبد الله جعفر بن محمَّد عليهما السلام، كتبها في جواب ما كتبه إليه المفضَّل بن عمر الجعفيّ، سأله فيه أن يكتب ردًّا على الملحدين المنكرين للربوبيَّة، واحتجاجًا عليهم. الذريعة: ٢/ ٤٨٤. (م).

(٣) الذي رواه عن الصادق عليه السلام في معرفة وجوه الحكمة في إنشاء العالم السفلي، وإظهار أسراره، فإنَّه عجيب في معناه. الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ٩١. (م).
وهو كتاب التوحيد، المعروف و المشهور بين العلماء، وقد سمَّاه النجاشيّ في رجاله بكتاب الفكر، وسمَّاه بعض الفضلاء بكنز الحقائق والمعارف. هامش كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٠.

الحقيقة»[1] [2].

ويوصي السيِّد ولده في كتابه كشف المحجَّة لثمرة المهجة: «فانظرْ في كتاب (نهج البلاغة)، وما فيه من الأسرار، وانظر (كتاب المفضَّل بن عمر)، الَّذي أملاه عليه مولانا الصادق عليه السلام فيما خلق الله جلَّ جلالهُ من الآثار، وانظر كتاب الإهليلجة، وما فيه من الاعتِبار»[3].

ويقرر السيِّد في كتابه: (الأمان من أخطار الأسفار والأزمان)، إذا تعذَّر على المسافر جلب هذه الكتب، فليصطحب شخصًا من أهل العلوم الربَّانيَّة: «وإن تعذَّرت هذه الكتب عليه، فليصحبْ معه من أهل العلوم الربَّانيَّة من يسر بمحادثته في الأمور الدينيَّة، و الدُّنيويَّة»[4].

كما أنَّ السيِّد في سفره المعنويّ إلى النَّجف الأشرف مع صديقِه، وأستاذِه، والذي يعبِّر عنه السيِّد بالأخ السيِّد محمَّد القاضي الآويّ، ويذكر عنه ما حصل من الرؤية، والمكاشفة، وسنذكر طرفًا منه في آخر المبحث مع ما حصل للسيِّد، وصديقِه.

ويسجِّل السيِّد لنا موقفًا في وصيَّته لابنه، ويظهر ما كرَّرناه آنفًا في اعتقادِه من أنَّ الله جلَّ جلالُه المالك على الإطلاق: «ولو جاءتِ الدُّنيا إلى والدك دفعة واحدة خرجت في أسرع الأوقات، ولكنَّها كانت تأتينا كما يريده الله تعالى في أزمان متفرِّقاتٍ»[5].

(١) «عن الصادق عليه السلام، فإنَّه كتاب لطيف شريف في التعريف بالتسليك إلى الله جلَّ جلالهُ والإقبال عليه والظفر بالأسرار التي اشتملت عليه». الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ٩٢.

(٢) «فإنَّ هذه الثلاثة كتب تكون مقدار مجلَّد واحد، وهي كثيرة الفوائد». الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ٩٢.

(٣) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٠.

(٤) الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ٩٢.

(٥) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٨٣.

تعدُّ هذه المسألة في بيانات العُرفاء توصف السير العمليّ للسيِّد؛ فما جاء في وصيَّته لابنه حين بلوغه: «وإن بقيت حيًّا على ما عوَّدني الله جلَّ جلالهُ من رحمته، وعنايته؛ فإنَّني أجعل يوم تشريفك بالتَّكليف عيدًا أتصدَّق فيه بمائة وخمسين دينارًا، عن كلِّ سنة بعشرة دنانير إن كان بلوغك بالسِّنين، واشتغل بذلك في خدمته؛ وإنَّما هو ماله جلَّ جلالهُ، وأنا مملوك، وأنت عبده، فتحمل إليه من ماله ما يريد أن تحمله لجلاله، وهذا المقدار خطرٌ على قلب تفويضي إليه وبحضوري بين يديه، وإن أراد جلَّ جلالهُ مهما أراد ما أقدرني عليه؛ فيكون قبول ذلك منِّي رحمةً، وشرفًا لي، ولك، ولا يبلغ وصفي إليه»[1].

ومن سيرته العمليَّة ابتعادُه، وتورُّعه عن الفتوى، وعن دولة المستنصر، والعلماء، ومخالطة الناس: «إنَّ أصعب المخالطات مخالطة العُصاة، سواء كانوا ولاةً، أو غير ولاةٍ»[2].

وطلبت دولة المستنصر من السيِّد للتصدِّي للقضاء، ومقام القضاة، وفي هذا الشَّأن يقول السيِّد: «اجتمع عندي من أشار إلى أن أكون حاكمًا بين المختلفين على عادة الفقهاء، والعُلماء من السَّلَف الماضين، ومصلحًا لأمور المتحاكمين»[3].

ولم يقبل الدَّعوى، وقال: «فقلت لهم: إنَّني قد وجدت عقلي يريد صلاحي بالكليَّة، ونفسي وهواي والشَّيطان يريدون هلاكي بالاشتغال بالأمور الدنيويَّة، وأنا قد دخلت بين عقلي، ونفسي، والشَّيطان، وهواي، على أن أحكم بينهم بمجرَّد العدل، ويتَّفقون كلُّهم مع العقل؛ فلم يوافقوا على الدوام على صواب هذه الأحكام.

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٤٢.
(٢) المصدر نفسه: ١٦١.
(٣) المصدر نفسه: ١٦٥.

وقال لسان حال العقل: إنَّه لا يجوز أن يكون تبعًا لهم على الهلاك والجهل، وما تهيَّأ في عمر طويل أن أحكمَ بين هذين الخصمينِ، أو أصالح بينهم مصالحة تقرُّ بها العين، وتنقطع معهم المنازعات، والمخالفات؛ فمن عرف من نفسه الضَّعفَ عن حكومة واحدة مدَّة من الأوقات، كيف يقدم على الدخول فيما لا يحصى من الحكومات؟!»[1].

«ولقد قال لي بعض العلماء المشكورين: لأيِّ سببٍ تترك مجالستنا، ومُحادثتنا، وأنت تدعونا، وتقرِّبنا إلى ربِّ العالمين؟.

فقلتُ له ما معناه: لأنَّني لو رأيت نفسي قويَّةً كلَّ أوانٍ، وزمانٍ على أن أجالسَكم، وأحدِّثكم، وأنا مشغولٌ في حال مجالستكم، ومحادثتكم بمجالسة الله جلَّ جلالهُ، ومحادثته بقلبي، وسريرتي، وأنَّكم في ضيافة إقبالي على حرمته بكلِّيَّتي، كنت جالستكم، وحدَّثتكم في كلِّ وقتٍ ممكنٍ من الأوقات، ولكن أخاف أن أحدِّثكم، أو أجالسكم، وقلبي تارةً ملآن منكم، ومفرغ من تذكاري أنَّني بين يدي الله جلَّ جلالُه؛ فأعتقد ذلك كالكفر إذا عزلته عن ربوبيَّته، وولايته، ووليَّتكم، وأنتم مماليكه عليه، وعلى قلبي الذي هو موضع نظره، ومسكن معرفته.

وإن جالستكم، وحدَّثتكم، وقلبي تارةً معكم، وتارةً معه، اعتقدتُ ذلك شركًا، وهلكًا، حيثُ جعلت موقعَكم من قلبي موقعَه»[2].

«وممَّا يُبتلى به الإنسان في مخالطة النَّاس يا ولدي محمَّد أغناك الله جلَّ جلالهُ عن مخالطتهم بالقوَّة الإلهيَّة، والأنوار الربانيَّة، تنظر بها خطر شواغلهم عن الله جلَّ جلالهُ بمعاشرتِهم، أنَّه يقتضي التصنُّع لهم في حركاته، وسكناته، وملبوسه،

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٦٥.
(٢) المصدر نفسه: ١٦٣.

وقيامه، وجلوسه، والاشتغال بإقامة ناموسِهم عن حرمة الله جلَّ جلالُه، وعظيم ناموسِه»[1].

«واعلمْ يا ولدي محمَّد، ومن بلغَهُ كتابي هذا من ذريَّتي، وغيرهم من الأهل، والإخوان، علَّمك الله جلَّ جلالهُ، وإيَّاهم ما يريد منكم من المراقبة في السرِّ، والإعلان، أنَّ مخالطة النَّاس داءٌ مُعضلٌ، وشغلٌ شاغلٌ عن الله ﷻ مذهلٌ، وقد بلغ الأمر في مخالطتهم إلى نحو ما جرى في الجاهليَّة من الاشتغال بالأصنام عن الجلالة الإلهيَّة.

فأقلِلْ يا ولدي من مخالطتك لهم، ومخالطتهم لك بغاية الإمكان؛ فقد جرَّبته، ورأيته يورث مرضًا هائلًا في الأديان؛ فمن ذلك أنَّك تُبتلى بالأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكرات؛ فإن أقمت بذلك على الصِّدق، وأداء الأمانات، صاروا أعداءَكَ على اليقين، وشغلوك بالعداوة عن ربِّ العالمين»[2].

ونلاحظ السيِّد يدعو لولده أن يعينه الله جلَّ جلالهُ على هذا الأمر المهمِّ؛ أعني المخالطة، وهو سلوك عمليٌّ، كما هو واضح: «يا ولدي محمَّد أغناك الله جلَّ جلالهُ عن مخالطتهم بالقوَّة الإلهيَّة، والأنوار الربانيَّة، تنظر بها خطر شواغلهم عنِ الله جلَّ جلالهُ بمعاشرتهم»[3].

وممَّا ينبغي التنبيه له من أنَّ السيِّد مع ما تقدَّم من كلامٍ له يمنع المخالطة، ولكن لا يعني أنَّه لا يقضي حوائج المحتاجين، ولا يوجب عن المسائل الدينيَّة؛ فهذه البرامج لا علاقةَ لها بالمعاشرة والمخالطة: «يأمرني الله جلَّ جلالُه به من قضاء حوائج النَّاس»[4].

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٦٢-١٦٣.
(٢) المصدر نفسه: ١٥٧.
(٣) المصدر نفسه: ١٦٢-١٦٣.
(٤) فلاح السائل: ١٥.

كما يبين السيِّد شرط المعاشرة، والمخالطة بقوله: «واعلمْ يا ولدي محمَّد مكَّنك الله جلَّ جلالُـه من مرادِه، وألهمك الانقيادَ إليه، والمنافسة عليه، أنِّي عزمت على الانقطاع من كلِّ شيء يشغلني عن ربِّ العالمين عن الخلائق أجمعين، وحضرت مشهد جدِّك أمير المؤمنين عليه السلام، واستخرت الله جلَّ جلالُه في ذلك استخارة على اليقين؛ فاقتضتِ الاستخارة أنَّني لا أترك مخالطتهم في مسكني بالكلِّيَّة؛ فأنا أخالطهم إذا حضروا بالله عزَّ وجلَّ في أوقات أرجو فيها سلامتي مع الجلالة الربَّانيَّة، وإذا رأيتُ روحي مشغولًا بهم أدنى اشتغال، تركتُ محادثتَهُم في الحال»[1].

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٦٣.

القسم الثاني

تأثُّر السيِّد ابن طاووس بالعرفاء السَّابقين، ومكانته وتأثيره في العرفان الإسلاميّ

الفصل الأوَّل

تأثُّر السيِّد ابن طاووس بالعرفاء السَّابقين

يعدُّ السيِّد من العلماء، والكُمَّل الشّيعة، ومن الذين تقبَّلوا العرفان، وهو شخصيَّة أخلاقيَّة سلوكيَّة، كما تقبَّل جميعُ علماء الشِّيعة عرفانَهُ.

وعِبر ما تقدَّم يمكن ملاحظة العرفان في حياته العلميَّة، والعمليَّة، وما تركه من آثار من أعمال منوِّعة، ومختلفة للجيل اللاحق.

وإنَّه يدلُّ على أنَّ العرفان كان له قدر كبير من الأهميَّة والأصالة والتأثير في رأيه.

ونظرته للعرفان مؤثِّرة جدًّا؛ فمن علامات تأثُّره بالأفكار العرفانيَّة، يعدُّ تأييد شخصٍ من الكمَّل للعرفان.

ومن جهةٍ أُخرى، فلمَّا كانت شخصيَّته مقبولةً؛ جعلتْ للعرفان مقبوليَّة، وأخرجته من العُزلة.

وتأثُّرات السيِّد الأكثر بالعقلاء، والحكماء في مساحة القلب، والسلوك. ونتحدَّث في هذا القسم عن تأثُّر السيِّد بالمعصومين سلام الله عليهم، وببعض أساتذته؛ ثمَّ تأثُّره بالعرفاء السَّابقين.

١ - تأثُّر السيِّد بالمعصوم عليه السلام

يعتقد السيِّد بأهل البيت عليهم السلام، بغضِّ النَّظَر على وجوب اتِّباعهم، وضرورته، أنَّهم كاملون، وأوصياء، والحافظون للمقامات المحمَّديَّة.

ويلاحَظ اعتماد السيِّد بشكلٍ مركَّزٍ على كلامهم سلام الله عليهم، وتأثُّره الكبير بهم سلام الله عليهم.

ويعدُّ الاعتقاد، والتَّأثر ظنًّا، ولكن حقيقة المسألة ضرورة الاعتقاد، والطَّاعة، والتبعيَّة لأئمَّة الإسلام سلام الله عليهم.

ومن الواضح أنَّ التأثُّر متفاوتٌ من شخص لآخر، ولكن يلاحَظ تأثُّر السيِّد العميق، والكبير باعتقاده، ونريد بيان شيءٍ قليلٍ عن ذلك في هذا المقام؛ فإنَّه متأثِّر بسيرة أهل البيت عليهم السلام، ومن هنا؛ فإنَّه متأثِّرٌ بهم عليهم السلام في جميع مراحل حياته.

ونطالع الشَّواهد في بياناته يأخذها من أهل البيت عليهم السلام.

وممَّا يؤيِّد تأثُّره بهم سلام الله عليهم، ما سجَّله لابنه في وصيَّته من الاقتداء، والتأثُّر، والأخذ بسيرة النبيّ، وعترته صلوات الله عليهم: «لا تكره أنِّي ما أخلِّف لك، ولإخوتك ذهبًا، ولا فضَّة بعد الممات؛ فهذه سيرة جدِّك محمَّد، وأبيك عليّ صلوات الله عليهما؛ فإنِّني وجدتهم قد امتنعوا أن يخلِّفوا لورثتهم ذهبًا، أو فضَّة، وخلَّفوا لهم ما يكفيهم، ويفضل عليهم من الأملاك، والعقار»[1].

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٨٠.

ومن هنا كتب السيِّد كتابه (كشف المحجّة)، كما كتب أمير المؤمنين عليه السلام للإمام الحسن عليهما السلام، والغريب أنَّه كتبه في السنِّ، والعمر نفسه: «ومن عجيب ما اتَّفق من غير أن أقصد إليه أنَّني ذكرتُ بعد تمامه أنَّ مولانا عليّ بن أبي طالب شرَّفه الله جلَّ جلالهُ بكمال صلاته عليه، كان إملاء رسالته إلى ولده، وخاصَّته، وشيعته بهذه النَّصائح، والمصالح في نحو الوقت الذي قد انتهى عمري إليه؛ لأنَّه أملى الوصيَّة إلى مولانا الحسن عليه السلام بعد عودتِه من صفِّين، وإلى خاصَّته بعد وقعة النهروان، وقتل المارقين، وبعدها وصل إلى الكوفة، وأقام مدَّة يسيرة معروفة، وقتله أشقى الآخرين عبد الرَّحمن بن ملجم عليه لعنة الله، ولعنة اللاعنين، وقد تكمَّل عمره الشريف نحو ثلاث وستين، وأنا قد كتبت هذا الكتاب إليك وإلى إخوتك، ومن يعزُّ علينا، وعليك وقد دخلت في سنة إحدى وستِّين من عمر دار الفناء؛ فسنح الله جلَّ جلالهُ في طول البقاء»[1].

ويلاحَظ بشكلٍ واضحٍ تأثُّر السيِّد بأهل البيت عليهم السلام عبرَ كتبِه، وآثاره، وسيرتِه، وسلوكِه، ومن تلك الشواهد سفرُه وهجرته إلى النجف، وكربلاء، وسامراء[2]: «ورجوتُ إذا شرَّفني الله بهذه الأمنية أن تكون هذه المجاورة في الثلاثة المشاهد النبويَّة ما سبقني أحدٌ فيما أعلم إلى مثلها، و إلى شرف فضلها؛ فما أعرف أحدًا انتقل إلى كلِّ مشهد منها بعياله كما انتقلت على ما أمكنني الله جلَّ جلالهُ من أفضاله ليكون ذلك وسيلة إلى أن يسكنونا في جوارهم في دار قرارهم، ويشملونا بمبارِّهم، ويشركونا في مسارهم إن شاء الله تعالى»[3].

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٢٤.
(٢) لاحظ: المصدر نفسه: ٢٧٧.
(٣) المصدر نفسه: ٢٧٥.

٢-١. تأثُّره بأساتذته

يعدُّ والد السيِّد من جملة أساتذته، في مرحلة الطفولة، وأوَّل من أثَّر بروح السيِّد، كما كتب السيِّد عن والده السيِّد سعد الدِّين، وعن جدِّه ورَّام، ومن أنَّهما كانا داعيَين إلى سبيل الله ﷻ ذلك: «إنَّ أوَّل ما نشأت بين جدِّي ورام، ووالدي قدَّس الله أرواحهم، وكمَّلَ فلاحهم، وكانوا دعاةً إلى الله جلَّ جلالهُ، وطالبين له جلَّ جلالهُ؛ فألهمني الله جلَّ جلالهُ سلوك سبيلهم، واتِّباع دليلهم..»[1].

لا باس أن أُشير إلى جملة من الملاحظات على النصِّ المتقدِّم من السيِّد:

- الدَّعوة الى الله جلَّ جلالهُ؛ فألمهت روح السيِّد من ذلك، وأثَّرت أثرها في روحه: «وكانوا دعاةً إلى الله جلَّ جلالهُ».
- المعاشرة، والحشر، والنَّشر مع من كان هدفهم الله جلَّ جلالُه: «وكانوا دعاة إلى الله جلَّ جلالهُ، وطالبين له جلَّ جلالهُ».
- قبل السيِّد دعوتهما إلى الله جلَّ جلالهُ، وألهمه الله جلَّ جلالهُ طريقتهم واتِّباع منهجهم: «فألهمني الله جلَّ جلالهُ سلوك سبيلهم، واتِّباع دليلهم».

كان ورَّام واعظًا في الحِلَّة، ويبدو أنَّ سعد الدين أيضًا كذلك، وهذا يُفهَم من عبارة السيِّد: «كانوا دعاةً إلى الله جلَّ جلالهُ..».

ويقوى الحدس من أنَّ ورَّامًا كان وعظه بروحيَّة أخلاقيَّة ترجع إلى العرفان، ويمكن أن ينطبقَ ذلك على السيِّد سعد الدِّين.

لا نمتلك معلومات كثيرة عن المنهج الفكريّ، والقلبيّ لسعد الدين، نعم، له

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٦٤.

كتابٌ لم يصل لنا ممَّا يؤسف له: (فرحة الناظر وبهجة الخاطر)، جاء في تعبير السيِّد عنه: «فرحة الناظر وبهجة الخاطر ممَّا رواه والدي موسى بن جعفر»[1].

كان من الرُّواة المحدِّثين، كتب رواياته في أوراق، ولم يرتِّبها؛ فجمعها ولدهُ رضيّ الدِّين في أربعة مجلَّدات، وسمَّاه: «فرحة الناظر وبهجة الخاطر ممَّا رواه والدي موسى بن جعفر».

ولو كان الكتاب متوفِّرًا لكان بالإمكان معرفة منهجه الفكريّ، والقلبيّ، ولكن لا نملك تفاصيل عن هذا الكتاب.

٢-٢. ممَّن تأثَّر به السيِّد ورَّامٌ جدّه؛ فإنَّه أستاذه، وذكره بصورة مفصَّلة، ويسمِّيه جدِّي[2].

ويقرِّر السيِّد من أنَّ ورَّامًا، ووالدَه سعد الدِّين كان لهما تأثيرٌ علميٌّ، وأخلاقيّ؛ فورَّامٌ كان مشغولًا بالوعظ بمنطقٍ أخلاقيّ يرجع إلى العرفانيّ: «كان جدِّي ورَّام بن أبي فراس قدَّس الله روحَهُ، ونوَّر ضريحَه من أورع من رأيناه عارفًا بأُصول الدِّين، وأصول الفقه، والفقه، وتاركًا ما تقتضيه الرِّئاسة الدنيويَّة بالكلِّيَّة»[3].

كما أنَّ السيِّد ينقل لولدِه ما قاله له ورَّام: «واعلمْ أنَّ جدَّك ورَّامًا قدّس الله روحَهُ كان يقول لي، وأنا صبيٌّ ما معناه: يا ولدي مهما دخلت فيه من الأعمال المتعلِّقة بمصلحتِك، لا تقنع أن تكون فيه بالدُّون دون أحد من أهل ذلك الحال، سواء كان علمًا، أو عملًا، ولا تقنع بالدُّون»[4].

(١) فتح الأبواب بين ذوي الألباب وبين ربِّ الأرباب: ١٧.
(٢) فلاح السائل: ٧٥، ١٢١.
(٣) فرج المهموم: ١٤٦.
(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٨٥.

وكان السيِّد متأثِّرًا بورَّام حتَّى أنَّه اقتدى به، وسلك مسلكَهُ في نقش خاتمه، ووصيَّته أن يوضعَ في فمِه بعد موتِه: «أقول: وكان جدِّي ورَّامٌ بن أبي فراس قدَّس الله روحَهُ، وهو ممَّن يُقتدى بفعلِه، قد أوصى أن يُجعل في فمِه بعد وفاته فصٌّ عقيق عليه أسماء أئمَّته صلوات الله عليهم؛ فنقشتُ أنا فصًّا عقيقًا عليه الله ربِّي، ومحمَّد نبيِّي، وعليّ إماميّ، وسمَّيت الأئمَّة عليهم السلام إلى آخرِهم أئمَّتي، ووسيلتي، وأوصيتُ أن يُجعلَ في فمِي بعد الموت؛ ليكون جواب الملَكَين عند المساءلة في القبر إنْ شاء الله تعالى»[1].

وممَّا كتبه ورَّام (مجموعة ورَّام = تنبيه الخواطر)، وهو كتابٌ حديثيّ بمنهج أخلاقيّ عرفانيّ، واشتهر ورَّام بهذا الكتاب؛ فعِبر مُطالعة هذا الكتاب يتَّضح اتِّجاهه الرُّوحيّ، وبُعده الرُّوحيّ فيه.

فضلًا عن ذلك، لو تسنَّى لشخصٍ الاطِّلاع على أفكار ورَّام، ومطالعة أفكار السيِّد ابن طاووس، لاتَّضح أنَّ بعض مباني السيِّد هي من أفكار ورَّام، وعلى سبيل المثال: المعرفة، التفكُّر، تهذيب النفس، الإخلاص، المحاسبة، محوريَّة الشَّريعة، وفي هذا القسم نشير إلى جملة من النماذج لأفكار ورَّام:

أ. «إنَّما غذاء القلب الحكمة والمعرفة، وحبُّ الله تعالى»[2].

ويرى ورَّام من أنَّ الإكثار من التفكُّر في خلق الله جلَّ جلالُه ينتج عنه المعرفة: «فكلَّما استكثرت من الفِكر في الخلق، نتج لك معرفة الخالق، وإذا استكثرتَ من معرفة عجيبِ صُنعِ الله، كانتْ معرفتُك بالله أتمّ»[3].

(١) فلاح السائل: ٧٥.
(٢) مجموعة ورَّام تنبيه الخواطر: ١/ ٩٣.
(٣) المصدر نفسه: ٢٦٨.

كما أشار ورَّام إلى أنَّ امتياز الإنسان من البهائم بالمعرفة[1].

ب. كما يَعِدُّ ورَّام المحبَّة، والعمل بالطَّاعات ثمرةَ التفكُّر، والمعرفة، والاعتبار[2].

ج. ومن هُنا يكتب ورَّام لزوم كيفيَّة التَّفكير في الخلق، ويؤكِّده[3]، وهذا ما نطالعُه في آثار السيِّد من إصراره على ذلك أيضًا، ويبدو تأثُّره بورام في هذا المجال.

د. كما أنَّه أشار إلى نكاتٍ مهمَّة في تهذيب النَّفس، يمكن مطالعتُها، والتزوُّد منها[4].

(١) انقل نصَّ الكلام لإتمام الفائدة:
«وأنت غافل عن ذلك، مشغول ببطنك وفرجك، لا تعرف من نفسك إلَّا أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام، وتشتهي فتجامع، وتغضب فتقابل، والبهائم كلُّها تشاركك في معرفة ذلك، وإنَّما خاصيَّة الإنسان التي حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السماوات والأرض وعجائب الآفاق والأنفس، إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقرَّبين، ويحشر في زمرة النبيِّين والصدِّيقين مقرَّبًا من جوار ربِّ العالمين، وليست هذه المنزلة للبهائم». مجموعة ورَّام: ١/ ٢٦٤. (م).

(٢) وهذا النصُّ الكامل:
«تزداد المعرفة، وبزيادة المعرفة تزداد المحبَّة فإن كنت طالبًا سعادة لقاء الله فانبذ الدنيا وراء ظهرك واستغرق العمر في الذِّكر الدائم والفكر اللازم فعساك تحظى منها بقدر يسير ولكن تنال بذلك اليسير ملكًا عظيمًا لا آخر له فأولوا النظر والفكر إذا اطَّلعوا على عجائب صنع الله تعالى في خلقه رأوا من عجائب صنعه ما يبهر به عقولهم ويتحيَّر فيه لبُّهم فيزدادون لا محالة إجلالًا لله تعالى وإعظامًا وكلَّما ازدادوا على أعاجيب صنع الله اطِّلاعًا استدلُّوا بذلك على عظمة الصانع وجلاله وازدادوا به معرفةً وله حبًّا عاملين بكثير من الطاعات مجانبين كثيرًا من المذمومات، مثال ذلك أنَّ من كان عالمًا بالفقه له مصنَّفات كثيرة إذا نظر فقيه في مصنَّفاته رأى منها ما يعجبه فاستحسنه عرف به فضله أحبَّه لا محالة وكلَّما اطَّلع في مصنَّفاته ازداد له حبًّا: مجموعة ورام: ١/ ٢٢٩. (م).

(٣) لاحظ: مجموعة ورَّام: ١/ ٢٦٤.

(٤) المصدر نفسه: ١/ ٩٤-٩٥، ٢٣٩.

هـ. كما أنَّه ذمَّ العلماءَ المشتغلين بالعلم، المهملين الطَّاعات[1]، ومن الواضح تأثُّر السيِّد به في هذا الاتِّجاه.

٢-٣. تأثره بـ: محمَّد بن محمَّد القاضي الآويّ؛ فكان السيِّد متأثِّرًا به كثيرًا؛ فكان ابن طاووس يظهر له الاحترام الخاصّ، والمحبَّة، وكان مصاحبًا له إلى الكِبَر: «ضاعف

(١) «باب ما جاء في أهل العلم المغترِّين: العلماء الذين أحكموا العلوم الشرعيَّة و العقليَّة وتفقَّهوا فيها واشتغلوا بها وأهملوا الطاعات واجتناب المقبحات واغترُّوا بعلمهم أنّهم عند الله بمكان، فلو نظروا بعين البصيرة علموا أنَّ العلم علمان علم بالله تعالى وصفاته، وعلم بالحلال والحرام ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها، فهي علوم لا تراد إلَّا للعمل ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم فائدة، فكلُّ علم يراد للعمل فلا فائدة له إلَّا العمل، فمثال ذلك كمريض به علَّة لا غنى به عن دواء مركَّب من أخلاط كثيرة لا يعرفها إلَّا حذَّاق الأطبَّاء فيسعى في طلب الطبيب بعد أن سافر عن وطنه حتَّى عثر على طبيب حاذق فعلَّمه الدواء وفصَّل له الأخلاط وأنواعها ومقاديرها ومعادنها التي منها تُجلب، وعلَّمه كيفيَّة دقِّ كلِّ واحد منها وكيفيَّة الخلط والعجن فيتعلَّم ذلك منه ويكتب منه نسخة حسنة بخطٍّ حسن ويرجع إلى بيته وهو يكرِّرها ويقرؤها ويعلِّمها المرضى ولم يشتغل بشربها واستعمالها أ فترى أنَّ ذلك يغني عنه من مرضه شيئًا؟ هيهات لو كتب منه ألف نسخة وعلَّمه ألف مريض وكرَّره كلَّ ليلة ألف مرَّة لم يُغنه ذلك عن مرضه شيئًا إلى أن يزن الذهب ويشتري الدواء ويخلطه كما تعلَّم ويشربه ويصبر على مرارته ويكون شربه في وقته وبعد تقديم الاحتماء وجميع شروطه، فمن ظنَّ أنَّ ذلك يكفيه ويشفيه فقد ظهر غروره، وهكذا الفقيه الذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتَّصف بها فهومغرور قال الله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾، ولم يقل قد أفلح من يعلم كيفيَّة تزكيتها وكتب علمها وعلَّمها الناس وعند هذا يقول له الشيطان لا يغرنَّك هذا المثال، فإنَّ العلم بالدواء لا يزيل المرض، وإنَّما مطلبك القرب من الله وثوابه والعلم يجلب الثواب ويتلو عليه الأخبار الواردة في فضائل العلم، فإن كان المسكين معتوهًا مغرورًا وافق ذلك مراده، فاطمأن إليه وأهمل العمل، وإن كان كيِّسًا قال: أ تذكِّرني فضائل العلم وتنسيني ما ورد في العالم الفاجر الذي لا يعمل بعلمه كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث﴾، وكقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ فأي خزي أعظم من التمثيل بالكلب والحمار». مجموعة ورَّام: ١/ ٢١٩. (م).

الله جلَّ جلالهُ سعادته، وشرَّف خاتمَته»[1].

كما أنَّ السيِّد يروي عنه، ولعلَّه تأثَّر به في الدُّعاء، والاستخارة.

ونقل العلَّامة الحِلِّيّ في نوع الاستخارة عن محمَّد الآويّ التي ينتهي نقلُها عن وليِّ الله الأعظم عجل الله فرجه الشريف: «العلَّامة الحِلِّيّ رحمه الله في منهاج الصَّلاح: نوع آخر من الاستخارة، رويتُه عن والدي الفقيه سديد الدين يوسف بن عليّ بن المطهَّر رحمهُ الله تعالى، عن السيِّد رضيّ الدِّين محمَّد الآويّ، عن صاحب الزَّمان عليه السلام، وهو أن يقرأ فاتحة الكتاب عشر مرَّات، وأقلّ منه ثلاث مرَّات، والأدون منه مرَّة؛ ثمَّ يقرأ إنَّا أنزلناهُ عشر مرَّاتٍ؛ ثمَّ يقول هذا الدُّعاء ثلاث مرَّات (اللهمَّ إنِّي أستخيرُك..)»[2].

كما نبَّه على هذه النُّكتة المرحوم محسن الأمين: «وهو راوي الاستخارة المعروفة عن صاحب الزَّمان، يرويها الشَّهيد..»[3].

كما نقل العلَّامة في منهاج الصَّلاح، والشَّهيد في الذكرى.. عن السيِّد الآويّ نموذجَين للاستخارة المعروفة، وهو ينقلها عن الحجَّة عجل الله فرجه الشريف، ويعلِّق المحدِّث النّوريّ بعد نقلِه لها: «وظاهر الكتابَين الشريفَين رحمهما الله تلقَّاها من الحجَّة عجل الله فرجه الشريف مشافهةً بلا واسطةٍ، وهذه في الغيبة الكبرى منقبةٌ عظيمة لا تحوم حولها فضيلة»[4].

ونشير هنا إلى ما ذكرَهُ العُلماءُ في علوِّ مقامِه: «سيِّدٌ جليل صالحٌ عابدٌ زاهدٌ صاحب مقاماتٍ عالية»[5].

(١) مهج الدعوات: ٣٣٩، فتح الأبواب: ٢٨٢.
(٢) البحار: ٥٣/ ٢٧٢.
(٣) اعيان الشيعة: ٩/ ٤٠٦.
(٤) خاتمة المستدرك: ٣/ ٣٣٤.
(٥) موسوعة طبقات الفقهاء: ٧/ ٢٤٩-٢٥٠.

«وكان زاهدًا عابدًا صاحب كرامات».

ولكـن لا نمتلـك معلومـاتٍ عن أسـاتذته في العرفان، كـما تقدَّم عن السـيِّد ابن طاووس، كما يظهر أنَّه كان يسكن في النَّجف: «المجاور بالمشهد المقدَّس الغرويّ، رضي الله عنه»[1].

ويبدو أنَّ السـيِّد الآويّ يتنقل ما بين الحِلَّة، وبغداد، وكما ينقل السيِّد ابن طاووس عن مرافقته له بالسـفر: «كنتُ قد توجَّهت أنا، وأخـي الصَّالح محمَّد بن محمَّد بن محمَّد القـاضي الآويّ، ضاعفَ اللهُ سـعادتَه، وشرَّف خاتمتَه، من الحِلَّة إلى مشـهد مولانا أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه»[2].

يلاحَظُ في جملة من الموارد، يذكر السـيِّد ابنُ طاووس بعض النُّكات المتعلِّقة ببُعده الروحـيّ، وخصوصيَّاته الروحيَّـة يذكرُهُ معه؛ وهذا يدلُّ على أنَّ السـيِّد الآويّ، كما في تعبير السيِّد «أهل العلوم الرَّبَّانيَّة».

لاحظنـا في ما تقدَّم أنَّ السـيِّد ابـن طاووس يوصي في الأمان بالسَّـفر إمَّا أن تحمِلَ معك أحد الكتب: مروج لأسراره، الفرج بعد الشـدَّة، المنامات الصَّادقات، البشارات بقضـاء الحاجـات على يد الأئمَّة عليهم السلام بعـد المهات، كتاب الإهليلجة، كتـاب المفضَّل بن عمـر، ومصباح الشَّريعة ومفتـاح الحقيقة، أو ترافـق أحدًا من أهل العلـوم الربَّانيَّة في سفرك.

«وإن تعـذَّرتْ هذه الكتبُ عليه؛ فليصحبْ معه من أهـل العلوم الربَّانيَّة من يسرُّ بمُحادثتِه في الأمور الدينيَّة، والدُّنيويَّة»[3].

(١) ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة: ٤/ ٢٦٩، موسوعة طبقة الفقهاء: ٧/ ٢٤٩.
(٢) البحار: ٥٣/ ٢٠٨.
(٣) الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ٩١-٩٢.

وتقدَّم أيضًا أنَّ السيِّد ابن طاووس يعبِّر عنه بـ: الأخ الصَّالح، ورافق السيِّد ابن طاووس السيِّد الأويّ في سفره المعنويّ إلى النَّجف في عام ٦٤١هـ، ونقلناها فيما مرَّ.

وما نقله السيِّد ابن طاووس عن منام رآه السيِّد الأويّ، وهذه شهادة من ابن طاووس للسيِّد الأويّ على معنويَّته، وروحيَّته، وهو من الربَّانيِّين في السَّفر: «فحدَّثني أخي الصَّالح محمَّد بن محمَّد الآويّ ضاعف الله سعادته، أنَّه رأى في تلك الليلة في منامه كان في يدي لقمة، وأنا أقول له: هذه من فم مولانا المهديّ عجل الله فرجه الشريف، وقد أعطيتُه بعضَها»[1].

وممَّا ينبغي الالتفات له أنَّه عدَّ تلك المكاشفات من البِشارات، فيما حصلَ، وتكرَّر ذلك في حرم أمير المؤمنين عليه السلام: «تجدَّدت في تلك الزِّيارة مكاشفات جليلة، وبشارات جميلة»[2].

هذا، وللسيِّد ابن طاووس تقريرٌ مفصَّلٌ في هذا المجال من قوله: «فحدَّثني أخي الصَّالح محمَّد بن محمَّد بن محمَّد الآويّ، ضاعف الله سعادته، بعدَّة بشارات رواها لي، منها..»[3].

٣- هل السيِّد متأثِّر بالعُرفاء والمتصوِّفة؟.

لم يُبحث إلى الآن في خصوص نظريَّات السيِّد في العرفان، والعُرفاء، والمتصوِّفة الشِّيعة، وغير الشِّيعة، وكذا العكس؛ ويمكن عرض تأثُّر السيِّد أو عدمه في نظريَّتَين.

(١) بحار الأنوار: ٥٣/ ٢٠٨.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) نقلنا فيما تقدَّم هذه المكاشفة تحت عنوان: النموذج الأوَّل للمكاشفة في حرم أمير المؤمنين عليه السلام.

ونشـير في القسـم الأوَّل هذا إلى بعض أقوال العُلماء في هذا السِّـياق؛ ثمَّ نذكر نظرَ المنصفينَ في الموضوع.

٣-١. نظريَّات جُملة من العلماء

٣-١-١. المرحوم العلَّامة محمَّد باقر المجلسيّ

ذكـر المجلسيّ بعد نقلِه دعاءَ عرفَة: «أقـول: قد أورد الكفعميّ رحمه الله أيضًا هذا الدُّعاء في البلـد الأمين، وابن طاووس في مصباح الزَّائر.. ولكن ليس في آخره فيهما بقدر ورقةٍ تقريبًـا، وهـو من قوله (إلهي أنا الفقـير في غِناي..) إلى آخر هذا الدُّعـاء، وكذا لم يوجدْ هـذه الورقة في بعض النُّسـخ العتيقة من الإقبال أيضًا، وعبارات هـذه الورقة لا تلائِم سياق أدعية السَّادة المعصومين أيضًا، وإنَّما هي على وفق مذاق الصوفيَّة، ولذلك قد مال بعض الأفاضل إلى كون هذه الورقة من مزيدات بعض مشايخ الصوفيَّة، ومن إلحاقاته، وإدخالاتـه، وبالجملة هذه الزيادة إمَّا وقعت من بعضهم، أوَّلًا في بعض الكتب، وأخذ ابن طاووس عنه في الإقبال غفلةً عن حقيقة الحال، أو وقعت ثانيًا من بعضهم في نفس كتـاب الإقبـال؛ ولعلَّ الثاني أظهر على ما أومأنا إليه من عدم وجدانها في بعض النُّسـخ العتيقة، وفي مصباح الزائر، والله أعلم بحقائق الأحوال»[1].

يبـدو أنَّ المجلسيّ يرجِّح الاحتمال الثاني؛ أي: أضيفـت هذه العبارة من المتصوِّفة؛ لأنَّه لم ينقلْها في النُّسخة القديمة للإقبال، ومصباح الزَّائر، ولكن مع هذا لم يجزم المجلسيّ بذلك، وهذا واضحٌ من تعبيره: «لعلّ.. الله أعلم..».

إذا ما قبِلْنا كلامَ المجلسيّ من أنَّ السيِّد أخذ من المتصوِّفة، أو احتملْنا ذلك؛ فينبغي أن يُقـالَ بنظرة عامَّةٍ، وإجماليَّـة أنَّه متأثِّر بالمتصوِّفة بنحوٍ عامٍّ؛ ولكن انتقد بعض الأكابر

(١) بحار الأنوار: ٩٥/ ٢٢٨.

مـا ذهب إليه المجلسيّ: «هذا النَّوعُ من الاسـتنتاج، تنبَّه له الأسـتاذ، ربَّـما ولِد من الجوِّ المناهـض للصُّوفيَّـة في زمن المرحـوم المجلسيّ رحمه الله، كما ذكـر ذلك العلَّامة الشَّـعرانيّ في مقدِّمة وهوامش ترجمة على دعاءِ عرَفة، ص٢-٢١.

أوَّلًا: إنَّ العِناية التي يوليها المسلمون بحفظ القرآن تختلفُ عن العناية التي يولونها في الأحاديـث، والأدعية؛ ولذلك نرى ذلك في دعاءٍ واحـدٍ في كتابٍ واحدٍ، مثل دُعاء عرفة في إقبال الأعمال، هناك اختلافات كثيرة فيه، وهذا ليس سببًا لتأثير الأعداء، ولكنَّه علامـة التَّهاون في الحفاظ على الحديث، والأدعيـة؛ ولذلك فإنَّ عدم حفظ جميع أجزاء الحديث يعدُّ تسـامحًا، وليس الحفاظ عليها كلَّها علامة (الدسِّ)، ولهذا السـبب نرى أنَّ هناك نسخة قديمة ومعتبرة للإقبال في مكتبة الإمام الرضا عليه السلام، تضمُّ جميع فقرات دعاء عرفة.

ثانيًا: لا يقتضي صرف المشابهة بين هذا الدُّعاء وما يذكره المتصوِّفة دليلٌ على الدسِّ؛ فلعلَّه أنَّهم استفادوا بشكلٍ أو بآخر من تعاليم الأئمَّة عليهم السلام.

ثالثًـا: إنَّ مضامـين هـذا الدُّعاء نلاحظها بشـكلٍ واضـحٍ في أدعيةٍ أُخـرى مثل: «كيـف يسـتدلُّ عليـك بما هـو في وجـوده مفتقـرٌ إليـك..»، أو «يـا من دلَّ عـلى ذاته بذاته..».

فإنَّ هذين الفقرتَين تدلَّان على برهان الصدِّيقين، كما تنبَّه لهُ صدر الدِّين الشيرازيّ، ومن ناحيةٍ أخرى؛ فلو لم يعبِّر عنها أئمَّتُنا، لما استطاع غيرهم أن يستنبط مثل هذه الأدلَّة الدقيقـة، والأنيقـة؛ ولذلك ينبغـي أن يقالَ لأمثـال المرحوم المجلسيّ: مجـرَّد اختلاف النُّسـخ، وعـدم وجود هـذا المقطع من الدُّعاء في بعض نُسـخ الإقبـال، والبلد الأمين، ومصبـاح الزائر، لا يكون دليلًا على عدم صحَّته، لاسـيما أنَّـه يحتوي على مضامين هي

للصدِّيقين، بإرشـاد الأئمَّة، وبعد قرون لا يسـتطيعون الوصول إليها لولاهُم سلام الله عليهم»[1].

كـما كان في زمـن العلَّامة المجلسيّ جـوٌّ ومحيطٌ سـلبيٌّ للمباحـث العرفانيَّة؛ فعالمٌ كالعلَّامـة المجلسيّ لم يُشِر إلى القسـم الثالث من دعاءِ عرفـة في كتابه (زاد المعاد)، وكذا المحـدِّث القمِّيّ عليـه الرَّحمة في كتابه (مفاتيح الجنان)، إذا ذكرهـا بنحو الزِّيادة، مع أنَّ السيِّد ابن طاووس ذكرَهُ في الإقبال[2].

٣-١-٢. طـرح المحدِّث النوريّ نظريَّات مختلفة حول كتاب (مصباح الشريعة)، وبعضِّ النَّظر عن نِسبة الكتاب إلى الإمام الصَّادق عليه السلام، أو إلى المتصوِّفة، استشهد به جملةٌ من العلماء، والفقهاء مثل السـيِّد، والشَّـهيد الثاني، والكفعميّ، وإن كان لديهم ميلٌ إلى التصوُّف على ما قِيلَ[3].

وبعد مـا نقله النوريّ في الأقوال المتعارضة في الكتـاب، وبيان مطوَّل في التَّهذيب من هذا الكتاب فضيل بن عياض؛ ثمَّ يذكر للصوفيَّة غايَتَين، ويردُّ على مَن نسب للسيِّد ميله إلى المتصوِّفة، «قد أطنبنا الكلامَ في شرح حال المصباح، مع قلَّة ما فيه من الأحكام، حرصًا على نشر المآثر الجعفريَّة، والآداب الصادقيَّة، وحفظًا لابن طاووس، والشـهيد، والكفعميّ (رحمهم الله تعالى) عن نسبة الوهم والاشتباه إليهم، والله العاصم»[4].

وينقـل في موضع آخر في شرح حـال الفقه الرضويّ للخوانسـاريّ، من أنَّ هناك جملةً من المسـائل تخالف أصـولَ الدِّين والمذهـب، وطريقة الأئمَّة عليهم السلام: «فقول السـيِّد

(١) شرح مناجات شعبانيه: ٣٢. (فارسيّ).
(٢) لاحظ: المصدر نفسه.
(٣) يأتي الكلام عن هذه النقطة. (م).
(٤) مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، الخاتمة: ١/ ٢١٦.

الفاضل المعاصر أيَّده الله -في ضمن شرح حال الفقه الرَّضويّ، وجرحه بعد الحكم بعدم كونه موضوعًا، وعدم وجود أخبار الغلوِّ فيه- ما لفظه: «بخلاف غيره ممَّا نُسِبَ إلى الأئمَّة عليهم السلام، كمصباح الشريعة المنسوب الى مولانا الصادق عليه السلام، وتفسير الإمام المنسوب إلى سيِّدنا أبي محمَّد العسكريّ عليه السلام؛ فإنَّ من أمعن النَّظَر الى تضاعيفهما، اطَّلع على أمور عظيمة مخالفة لأصول الدين، والمذهب، مغايرة لطريقة الأئمَّة عليهم السلام، وسياق كلماتهم»[1].

أقرر في البداية ما ذكره النوريّ من هدفَين أساسيَّين للصوفيَّة، وسأذكرهما بالتَّرتيب؛ فإنَّ أحدهما مقدَّمٌ على الآخر:

أ. تهذيب النَّفس، وتصفيتها من الكدورات، والظُّلمات.

ب. تخلية القلب من الرَّذائل.

ت. حفظها عمَّا يظلمها، ويفرِّقها، ويقسِّيها، وتحليتها بالأوصاف الجميلة، والكمالات المعنويَّة.

قال: «قلتُ: للصوفيَّة مقصدانِ، أحدهما مقدِّمة الأخرى:

الأوَّل: تهذيب النفس، وتصفيتها عن الكدورات، والظُّلمات، وتخليتها عن الرَّذائل، والصِّفات القبيحة، وحفظها عمَّا يظلمها، ويفرِّقها، ويقسِّيها، وتحليتها بالأوصاف الجميلة، والكمالات المعنويَّة»[2].

ثمَّ يشير المرحوم النوريّ إلى أن تحصيل هذه الغاية تحتاج إلى:

أ. معرفة النفس، والقلب.

(١) مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، الخاتمة: ٥/ ١٩٦.

(٢) المصدر نفسه: ١/ ٢٠٢.

ب. معرفة المبادئ وآثارها.

ج. ما به يتوسَّل إلى التَّطهير، والتزكية، والتَّنوير، والتَّحلية.

«وهذا يحتاج إلى معرفة النفس، والقلب إجمالًا، ومعرفة الصِّفات الحسَنة، والقبيحة، ومبادئها، وآثارها، وما به يتوسَّل إلى التَّطهير، والتَّزكية، والتَّنوير، والتَّحلية»[1].

ويعقِّب المرحوم النوريّ على هذا الهدف بقوله: «وهذا مقصدٌ عظيمٌ يشاركهم أهل الشَّرع، وكافة العلماء على اختلاف مشاربهم وآرائهم»[2].

ثـمَّ يقول: «وكيف لا يشـاركون فيما وضعت العبـادات، والآداب لأجله، وبُعِث الأنبيـاء لإكماله! وكفى بما في الكتاب المجيد من الاهتمام بأمر القلب وتهذيبه، بما وصفه به من الرِّين والطَّبع، والغشاوة، والكبر، والضِّيق، والتحجُّر، وإرادة العلوِّ، والصَّرف، والزَّيغ، والمرض، والقسـوة، والظُّلمة، والغلـف، والقفل، والجهل، والعَمى، والموت، وأمثالهـا، و مدحـه الذين اتَّصفوا بـما يضادَّها من الخشـوع، واللِّين، والرِّقَّـة، والعلم، والهدايـة، والسَّـلامة، والاطمئنـان، والرَّبـط، والحيـاة، والمحبَّـة، والصَّـبر، والرِّضا، والتوكُّل، والتَّقوى، واليقين، وأمثالها شاهدًا في المقام»[3].

ثـمَّ يقرّر المرحوم النـوريّ ما يعتقدهُ في المتصوِّفة: «وللقـوم في هذا المقصد العظيم كتـب، ومؤلَّفات فيها مطالب حسـنة نافعة، وإن أدرجوا فيها مـن الأكاذيب، والبِدَع، خصوصًا بعض الرِّياضات المحرَّمة ما لا يحصى، ومن هنا فارقوا أهل الشَّرع المتمسِّكين بالكتـاب، والسـنَّة، والمتشـبِّثين بأذيال سـادات الأمَّـة؛ فحصول هـذا المقصد عندهم منحـصرٌ بالعمل، بتـمام ما قرّروهُ لهم، والاجتناب عمّا نهوا عنـه، دون ما أبدعوهُ في هذا

(١) مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، الخاتمة: ٥/ ١٩٦.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.

المقام من الرِّياضات، ومتابعة الشَّيخ، والمرشد على النَّحو الذي عندهم، وهذا هو مراد الشَّهيد في الدُّروس، في بحث المكاسب؛ حيث قال: وتحرَّمُ الكهانة.. إلى أن قال: وتصفية النَّفس؛ أي بالطُّرق الغير الشرعيَّة»[1].

ثمَّ إنَّ المرحوم النوريّ يذكر الهدف الثاني للمتصوِّفة، مفاده:

أ. المعرفة، وما فوقها من الاتِّحاد، والفَناء.

ب. مقامات لم يدعَّيها نبيٌّ، ولا وليٌّ.

«**الثَّاني**: ما يدَّعون من نتيجة تهذيب النفس، وثمرة الرِّياضات من المعرفة، وفوقها، من الوصول، والاتِّحاد، والفناء، ومقامات لم يدَّعيها نبيٌّ، من الأنبياء، ووصيٌّ من الأوصياء؛ فكيف بأتباعهم من أهل العلم، والتُّقى! مع ما فيها ممَّا لا يليق نسبتُه إلى مقدَّس حضرته جلَّ وعلَا، ويجب تنزيهُه عنه سبحانَه، وتعالى عمَّا يقوله الظَّالمون»[2].

يعتقد المحدِّث النوريّ من أنَّ الغَرَض الثَّاني لا ينسجم مع المتديِّنين، والمتشرِّعة: «وأمَّا المقصد الثاني فحاشا أهل الشَّرع، والدِّين، فضلًا عن العلماء الرَّاسخين، أن يميلوا إليه، أو يأملونهُ، أو يتفوَّهون به، وأغلب ما ورد في ذمِّ الجماعة ناظر إلى هذه الدَّعوى، ومدَّعيها»[3].

مع أنَّه يعتقد ثمَّة مشاركة بين المتشرِّعة والمتصوِّفة في الهدف الأوَّل: «وأمَّا الأوَّل، فقد عرفت مشاركتهم فيه، وإن فارقوا القوم في بعض الطُّرق، وحيث إنَّهم بلغوا الغاية فيما القوَّة في هذا المقام، والحكمة ضالَّة المؤمن، حيث وجدها أخذها، ترى مشايخنا

(١) مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، الخاتمة: ٥/ ١٩٦.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.

العظـام، والفقهاء الكـرام كثيرًا ما يرجعون إليـه، وينقلون عنه، ويشـهدون بأحقِّيَّته، ويأمرون بالأخذ به؛ فصار ذلك سـببًا للطَّعن عليهم، ونسـبتهم إلى الصوفيَّة، أو ميلهم الى المتصوِّفـة، ظنًّـا منهم الملازمة بـين المقصدَيـن، وإنَّ من يحضُّ على تهذيـب النَّفس، وتطهير القلب، ويستشهد في بعض المقامات، أو تفسير بعض الآيات بكلمات بعضهم، ممَّا يؤيِّده أخبارٌ كثيرة؛ فهو منهم، ومعهم في جميع دعاويهم.

وهذا من قصور الباع، وجمود النَّظر، وقلَّة التدبُّر في مزايا الكتاب والسنَّة.

وآل أمرهم إلى أن نسـبُوا مثل الشيخ الجليل، ترجمان المفسِّرين أبي الفتوح الرَّازي، وصاحـب الكرامـات عليّ بـن طاووس، وشـيخ الفقهـاء الشـهيد الثاني (قـدَّس الله أرواحَهم) إلى الميل إلى التصوُّف كما رأيناهُ، و هذه رزيَّة جليلةٌ، ومصيبة عظيمة لا بدَّ من الاسترْجاع عندَها»[1].

٣-٢. نظرنا

لا شـكَّ في أنَّ السـيِّد يشـاركُ، ويوافق المتصوِّفة في الهدف الأوَّل كعلماء الإسـلام الآخرين، وإذا اعتبرنا هذا تأثُّرًا؛ فيمكن عدُّهُ تأثرًا بالطَّبَقتينِ.

ولكـن ينبغـي تفكيـك نظريَّة المحـدّث، وعليه سـأبحث في نهاية المطـاف نقدًا لهُ بعنوان: نظرٌ ونقدٌ.

تقـدَّم آنفًـا: ثمَّة احتمالٌ مـن أنَّ السـيِّد له نحو ارتبـاط، وعلاقة ببعـضِ العُرفاء، والصَّالحـين غير معروفـين؛ ولعلَّه حصل ذلك عبرَ المراسـلات، كـما حصلَ بين صدر الديـن القونـويّ، والخواجة نصير الديـن الطوسيّ جملة من المكاتبـات، وأبرز الطوسيّ تقديرَهُ لها.

(١) مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، الخاتمة: ٥/ ١٩٦.

ويمكن أن يكون السيِّد لهُ مُراسلاتٌ مع الطوسيّ، الذي عنده علاقة مع القونويّ، ولكن يبقى هذا احتمال، ولا نملك دليلًا عليه.

كما لا ريبَ في أنَّ السيِّد استفاد بنحو مجملٍ منهُم، كالمصطلحات، والأدبيَّات، والسِّيرة للعُرفاء، ويتَّضح تأثُّرهُ بهم من تعبيراته كـ: مقام[1]، المقامات العرفاء[2]، وكذا لفظ المكاشفة، والعيان.

«فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ مَوْلَانَا جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ الصَّادِقَ عليه السلام، كَانَ يَتْلُو الْقُرْآنَ فِي صَلَاتِهِ، فَغُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ سُئِلَ مَا الَّذِي أَوْجَبَ مَا انْتَهَتْ حَالُكَ إِلَيْهِ؟ فَقَالَ مَا مَعْنَاهُ: مَا زِلْتُ أُكَرِّرُ آيَاتِ الْقُرْآنِ حَتَّى بَلَغْتُ إِلَى حَالٍ كَأَنَّنِي سَمِعْتُ مُشَافَهَةً مِمَّنْ أَنْزَلَهَا عَلَى الْمُكَاشَفَةِ وَالْعِيَانِ»[3].

كما أشار السيِّد (وذكرناه مفصَّلًا سابقًا) من أنَّ هناك طريقًا آخر للمعرفة: «فكلُّ هذه المواهب شيء منها جرَّبناه، وشيء منها عرفناهُ، وسمعناه»[4].

كما كتب عن خلوة العرفاء، وأحاديث أهل المحاسبة، والمراقبة، وحكايات أهل القلوب: «وَلَقَدْ كَانَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ يُكْثِرُ الْخَلَوَاتِ، فَقِيلَ لَهُ: أَ مَا تَسْتَوْحِشُ لِمُفَارَقَةِ الْأَهْلِ وَالْجَمَاعَاتِ؟ فَقَالَ: أَنَا جَلِيسُ رَبِّي، إِنْ أَحْبَبْتُ أَنْ يُحَدِّثَنِي تَلَوْتُ كِتَابَهُ، وَإِذَا أَحْبَبْتُ أَنْ أُحَدِّثَهُ دَعَوْتُهُ وَكَرَّرْتُ خِطَابَهُ.

قلتُ أنا: وكم من مطلبٍ عزيزٍ، وحسن حريز في الخلوة بمالك القلوب، وكم هناك من قربٍ محبوبٍ، وسرٍّ غير محجوب»[5].

(١) فلاح السائل: ٢٣، ٣٣، ٤٦، ٥٢، ٦٥، ١٠٦، ١٧٥، ٢٠٦، ٢١١، ومنهج العبادات: ٣٠٢.
(٢) فلاح السائل: ١٠٤، ٢٠١، كشف المحجَّة: ٧٣، مهج الدعوات: ٢٧٣.
(٣) فلاح السائل: ١٠٧.
(٤) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٩٢.
(٥) فلاح السائل: ٦.

«وَلَقَدْ رَأَيْتُ فِي أَحَادِيثِ أَهْلِ الْمُحَاسَبَةِ وَ ذَوِي الْمُرَاقَبَةِ أَنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ يُصَلِّي بِنَشَاطٍ وَاهْتِمَامٍ وَانْبِسَاطٍ، فَقَالَ: يَا رَبِّ هَلْ بَقِيَ عَلَيَّ مِنَ الْإِقْبَالِ فِي الصَّلَاةِ مَا أَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى الِاسْتِدْرَاكِ قَبْلَ الْمَمَاتِ؟ فَقِيلَ لَهُ: نَعَمْ إِنَّكَ تَسْكُنُ إِلَى نَسِيمِ الْأَسْحَارِ وَيُنَشِّطُكَ لَنَا غَيْرُنَا، وَمَا هَكَذَا تَكُونُ صِفَاتُ خَوَاصِّ الْأَبْرَارِ، فَمَعَكَ شَرِيكٌ لَنَا فِي خِدْمَتِكَ، وَبَاعِثٌ آخَرُ غَيْرُ مَا أَرَدْنَاهُ مِنْ إِخْلَاصِ عُبُودِيَّتِكَ»[1].

«لقد رأيت في حكايات أهل المراقبات»[2].

«لَقَدْ قِيلَ لِبَعْضِ الْعَارِفِينَ: مَا أَحْسَنَ مَا تُقْبِلُ بِوَجْهِكَ عَلَى الصَّلَوَاتِ؟ فَقَالَ: إِنْ كَانَ وَجْهِي لَا يَلْتَفِتُ، فَإِنَّ وَجْهَ قَلْبِي كَثِيرُ الِالْتِفَاتِ»[3].

وتقدَّم من أنَّ السيِّد يرى من وصول العُرفاء للمعرفة غير معلوم، ومحدَّد، وهذه المسألة حول العرفاء من أنَّه ملتفتٌ لها، كما أنَّ مكانة العرفاء في نظر السيِّد وقلبه عاليةٌ.

كما نطالع في آثار السيِّد استخدامه لألفاظٍ فاخرةٍ في التَّعبير عن العرفاء، مثلًا: «وما بقي لهم قلب، ولا جنان، ولا لسان، ولا إمكان تصرف فيما يبعدهم عنه»[4].

وأيضًا: «فعظمته جلَّ جلالُه لهم ذاهلة، ورحمته جلَّ جلالهُ الكاملة لهم شاغلة؛ إذ كلٌّ منهما يملك قلوب العارفين، ويشغل عقول المكاشفين»[5].

(١) فلاح السائل: ٩٠.
(٢) المصدر نفسه: ٢١٠.
(٣) المصدر نفسه: ١٠٢.
(٤) المصدر نفسه: ٦٣.
(٥) المصدر نفسه.

ثـمَّ إنَّ السـيِّد يصفُهُـم: «أولئـك لا يعرفـون إن وجـدوا، وإن غابـوا لم يُفتقَدُوا، ومـا أعنـي أنَّ أسـماءَهم، ووجوههم غـير معروفة؛ بـل الوجوه، والأسـماء موصوفة، وأسرارهـم، وأسرار مولاهـم عندهـم غير مكشـوفة، ولا تعجـب إذا قيـل لك إنَّهم لا يعرفون، وهم منظورون؛ لأنَّ سيِّدَهم، ومن هو أعظم كمالًا، وجلالًا منهم، قال الله جلَّ جلالُه عنه: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[1]»[2].

ثـمَّ يبيِّن السـيِّد أنَّ العُرفاء متعصِّبـون في التَّوحيد: «ولو خاطـروا في ذلك بالدُّنيا كلِّها، كان مقدارُها عند العارفين مقدارًا هيِّنًا»[3].

وكتـب عن العارفين من أنَّهـم لا يتكلَّمون في وقتٍ ما بين العِشـاءَين؛ فهو مختصٌّ بمُناجـاةِ علَّام الغيوب: «كان جماعـةٌ من العارفين لا يتكلَّمون مـع غير الله جلَّ جلالُه بـين المغـرب، وعِشـاء الآخـرة؛ فإنَّه وقـتٌ مختـصٌّ بمُناجاة عـلَّام الغيـوب، ونجاح المطلوب..»[4].

كـما أنَّه كان يعرف شـخصًا يعرف أوائل الشُّـهور: «أعرفُ عـلى اليقين من يعرف أوائلَ الشُّهور»[5].

ثمَّ يذكر السيِّد شخصًا يعرف ليلة القدر على نحو اليقين: «فإنِّني عرفتُ، وتحقَّقتُ مِن بعض مَن أدركته أنَّه كان يعرف ليلة القدر كلَّ سنةٍ على اليقين»[6].

وباعتقـاد السـيِّد أنَّ البُغـض، والحبّ في بعـض الروايات هو رضـا أولياء الله عليهم السلام

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٨.
(٢) فلاح السائل: ٦٣.
(٣) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٧٢.
(٤) فلاح السائل: ٢٣٢.
(٥) المصدر نفسه: ٢٣٢.
(٦) إقبال الأعمال: ١/ ٦٦.

«وقالوا لهم ما معناه أنَّ غضب الله جلَّ جلالُه، ورضاه إشارة إلى غضب أوليائه، وخاصَّته، ورضاهم، وهذا صحيح عند العارفين، وأنَّ خواصَّه جلَّ جلالُه ما يغضبون، وما يرضون إلَّا بعد غضبه سبحانَه ورضاه؛ لأنَّهم عليهم السلام لهُ جلَّ جلالهُ تابعون، لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ، وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ»[1].

ويعلِّق السيِّد بعد نقلِه دعاء منقول عن الإمام الحسن المُجتبى عليه السلام، وما فيه من أسرارٍ عظيمة: «وهذا قد ذكرناه في كتاب إغاثة الدَّاعي، وإعانة الساعي؛ وإنَّما كان هذا الكتاب يعني به مهج الدَّعوات أحقّ فيه للعارف الواعي»[2].

(١) لإتمام الفائدة انقل ما قاله السيِّد: «فصل: وأمَّا حبُّ الله جلَّ جلالُه لعبده إذا أطاعه وغضبه عليه إذا عصاه، فلعلَّك تجد في الروايات والمقالات أنَّ حبَّ الله جلَّ جلالُه للعبد أو رضاه عنه هو ثوابه له وأن غضب الله جلَّ جلالُه على عبده العاصي هو عذابه له، فأمَّا المقالات لذلك فلا يجوز تقليدهم في المعقول وأما حديث الرواية والمنقول فإن سلمت من الطعن عليها وكانت عن معصوم، فلعلَّ ذلك قالوه على سبيل التقيَّة فإنَّهم عليهم السلام كانوا في تقيَّة هائلة وقد كشفنا تقيَّتهم فيما ذكرنا في الاعتذار لمضمون كتاب الكشِّيّ، فإنَّ هذا القول كثير في مذهب المخالفين لهم أو لعلَّ ذلك قالوه للتقريب على السائلين والسامعين فإنَّ كثيرًا من المستمعين تقصر أفهامهم عن أسرار صفات سلطان العالمين فلعلَّهم خافوا عليهم أنَّهم إذا قالوا لهم إنَّ الله جلَّ جلالُه يحبُّ ويرضى ويغضب ويسخط أن يسبق إلى خواطر من يسمع ذلك أنَّه جلَّ جلالُه يحبُّ ويرضى مثل الحبِّ والرِّضا من الطباع البشريَّة أو يغضب ويسخط مثل الغضب والسخط من القلوب الترابيَّة فحدَّثوا عليهم السلام بما تبلغ إليه عقول السائلين والسامعين وإذا اعتبرت بعض الروايات في ذلك وجدتها شاهدة بأنَّهم نفوا عن الله جلَّ جلالُه الحبَّ والرِّضا والغضب والسخط الذين تتغيَّر الأمزجة بهما ولا يصحَّان إلَّا على الأجسام القابلة لهما حتَّى قرَّبوا على بعض السائلين وقالوا لهم ما معناه إنَّ غضب الله جلَّ جلالُه ورضاه إشارة إلى غضب أوليائه وخاصَّته ورضاهم وهذا صحيح عند العارفين وأنَّ خواصَّه جلَّ جلالُه ما يغضبون وما يرضون إلَّا بعد غضبه سبحانه ورضاه لأنَّهم عليهم السلام له جلَّ جلالُه تابعون، لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ، وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ». فلاح السائل: ١١٣. (م).

(٢) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ١/ ١٤٣.

ونطالع في الفصل الثالث عشر من كتاب (فلاح السائل) عنوان: في صفة الطَّهارة بالماء للغسل عقلًا، ونقلًا «المهمُّ عند العارفين في الاغتسال قبل الشروع تقديم غسل القلوب»[1].

ونقرأ ما سجَّلهُ ابن طاووس حول نيَّة العارفين فيما يتركونهُ من إرثٍ: «ومن صفات العارفين إذا كان لأحدهم ما يبقى بعده للوارثين أنَّهم يراعون قلوبهم، وعقولهم؛ فإن وجدوها تترك ما يتركونه من التَّركات خدمةً لله جلَّ جلالُه، وامتثالًا لأمره الشَّريف في معونة من يصل إليه من الوراث، وأهل الوصيَّات بادروا إلى ذلك على هذه النيَّة الصَّادقة، وكانوا كأنَّهم قد أنفقوها لله جلَّ جلالهُ أيَّام حياتهم الفانية، وهؤلاء ما تركوا تركة في التّحقيق، وإنَّما حملوها معهم زادًا لبعد الطَّريق، وجعلوها من الوسائل إلى نجاح المسائل في القرب من المالك الرَّحيم الشَّفيق.

وإن لم يجدوا قلوبهم، وعقولهم موافقة على هذا الإخلاص في ترك تركاتهم، وأنَّها إنَّما يترك ذلك بالطَّبع؛ لئلَّا يرى النَّاسُ أولادهم، وورَّاثهم في ذلِّ ضروراتهم؛ ولئلَّا يشمتُ بهم شامتٌ من العباد، أو لغير ذلك من الخواطر التي لا يكون المراد بها عبادة مالكِ يوم المعاد؛ فإنَّهم عند هذه الحال يحملون أنفسهم قبل الوفاة على إخراجِها في الصَّدَقات، والقُربات، وتحصيل صفات الكمال قبل الممات، ولا يقنعون أن يتركوها ضائعةً بعدهم بغير نيَّة القُربات»[2].

(١) انقل تمام الكلام للفائدة:
«المهمُّ عند العارفين في الاغتسال قبل الشروع تقديم غسل القلوب من الذنوب بماء الخشوع، وغسل الجوارح من العيوب بماء الدموع، ونيَّة غسل التوبة بوسيلة الإخلاص، والدخول عند الغسل إلى مقام الاختصاص والأغسال». فلاح السائل: ٥٥. (م).
(٢) فلاح السائل: ٦٥-٦٦.

كما أنَّ السيِّد يوضِّح لنا ما يعتقدُهُ العُرفاء في الذَّهب، والفضَّة، وما شابه أهون من التراب: «فقد رأينا من شرَّفه جلَّ جلالهُ جعل الذَّهب، والفضَّة عنده أهون من التراب؛ بل جعلهُ عنده عدوًّا يفرُّ منه، وإذا حصل له أخرجه عاجلًا، أو تباعد عنه، أو كان يجعل لهُ من الأنوار في الأسرار ما يكون كاشفًا بجلالِه، ومتشرِّفًا بإقبالِه، ومشغولًا عن كلِّ ما عداهُ من دنياه، وأخراه»[1].

ويذكر السيِّد من اختلاف بعض الزَّاهدين، والعلماء من بعض الفِرق الإسلاميَّة راجع إلى تأويل بعض الآيات، والرِّوايات، ولم يتركوا الصَّوابَ عنادًا منهم، أو مكابرة: «وإذا اعتبرت اختلاف أهل الأمانة، والورع، والاجتهاد من سائر فرق المسلمين العلماء منهم، والزُّهَّاد، وجدتهم مختلفين في تفسير أكثر مراد الله جلَّ جلالُه من آيات الكتاب، والسُّنن، والآداب، وعلمت أنَّ كثيرًا من المختلفين في هذه الأسباب ما عاندوا، ولا كابرُوا في ترك الصّواب؛ وإنَّما أكثر الآيات، والروايات محتملات لبعض ما وقع من اختلاف التَّأويلات»[2].

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٩٢.

(٢) لا باس بنقل تمام العبارة:
«وأشهد أن الله جلَّ جلالُه قطع بحججه العقليَّة والنقليَّة حجج الخلائق ولطف بالعباد برؤساء وشهداء يحتج بهم على من يحتج عليه من أهل المغارب والمشارق وأودعهم ما يحتاج المكلَّفون منهم إليه وكشف برحمته وجوده عن آيات باهرات وبيِّنات نيرات تهدي إلى من اعتمد في الرئاسة عليه لا يشتبه معدنها ومكانها ولا يخفى نورها وبرهانها على كلِّ من صدقه جلَّ جلالُه في قوله الذي وعاه ورعاه العارفون: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ فإنَّه إذا كان مراده جلَّ جلالُه من خلقهم سعادتهم بمعرفته وعبادته، وتشريفهم بخدمته ومراقبته وكان آراؤهم وأهواؤهم مفسدة لتدبيره كما نطق به كتابه المصون في قوله جلَّ جلالُه: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾، وجب أن يكون لهم ما يمنع أهواءهم من الفساد، ويقمع آراءهم عن هلاك أنفسهم والعباد على كمال صفات الحقِّ الذي لو اتَّبع أهواءهم لفسدوا، وهذه صفة المعصوم الذي يلزمهم أن يهتدوا به=

ذكرنا فيما تقدَّم علاقة السيِّد القلبيَّة، وتأثُّره في بيان ونظريَّات العرفاء، ومن هنا لا يمكن إنكار أنَّ ابن طاووس لم يتأثَّر بالعُرفاء أبدًا.

كما أنَّه يحتمل أنَّه التقى ببعض المعاصرين لهُ في سفرٍ مثلًا، أو ما إلى ذلك من طرائق التَّواصل.

=ويقتدوا وكيف تكون آراؤهم وأهواؤهم كافية في تدبير أمور الدنيا والدين، وهو جلَّ جلالُه يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

ولقد أوضح جلَّ جلالُه بما استدرك على بعض اختيارات جماعة من الأنبياء والمرسلين أنَّ من يكون دون المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، لا يقوم الحجَّة باختيارهم على الكشف واليقين كما جرى لآدم عليه السلام في اختياره الأكل من الشجرة بما تضمنه صريح الآيات وجرى لداود عليه السلام فيما نطق به القرآن في بعض المحاكمات وما جرى لموسى عليه السلام في اختياره سبعين رجلًا من قومه للميقات، فإذا كان هذا اختيار أنبياء قد بلغوا من المكاشفات والعنايات غايات ونهايات وقد احتاجوا إلى استدراك الله جلَّ جلالُه عليهم بل لهم في بعض المقامات، فكيف يكفي تدبير من هو دونهم في كمال التدبيرات والإرادات؟ وإذا اعتبرت اختلاف أهل الأمانة والورع والاجتهاد من سائر فرق المسلمين العلماء منهم والزهَّاد، وجدتهم مختلفين في تفسير أكثر مراد الله جلَّ جلالُه من آيات الكتاب والسنن والآداب، وعلمت أنَّ كثيرًا من المختلفين في هذه الأسباب ما عاندوا ولا كابروا في ترك الصواب، وإنَّما أكثر الآيات والروايات محتملات لبعض ما وقع من اختلاف التأويلات.

وظهر لك بذلك إن كنت قابلًا للألطاف أو مريدًا للإنصاف أنَّ اختيارات العباد غير المعصومين لا تقوم بها الحجَّة البالغة عليهم لسلطان العالمين وأنَّها لا تكفيهم في أمور الدنيا وحفظ الدين وأنَّه لا بدَّ من رئيس يتولى الله جلَّ جلالُه بلطفه وعطفه تهذيب اختياره وتأديب أسراره وتكميل صفاته، ويكون هو جلَّ جلالُه من وراء حركات ذلك المعصوم وسكناته يمدُّها بالعنايات الباطنة والظاهرة ويرعاها بالهدايا المتناصرة، كما كان من وراء تدبير الأنبياء والمرسلين ومن وراء تدبير من جعله رسولًا من الملائكة والمقرَّبين وهذا واضح لا يخفى على ذوي الألباب. ويكون ذلك المعصوم هو الحجَّة لسلطان يوم الحساب، وقوله وفعله عليه السلام هو القدوة التي لا تحتمل اختلاف التأويلات، وهو الكاشف عن مراد الله جلَّ جلالُه بالآيات والروايات». فلاح السائل: ٤. (م).

كـما أنَّه لم يقدح بنحوٍ صريحٍ بالمدرسـة الصوفيَّة، وأعلامها، نعم، يشـيرُ إلى بعض المتصوِّفة بنحو إجماليّ، وكلِّيّ من انتسـابهم، وما إلى ذلك، ويسجِّل على بعضهم جملةً من الملاحظات نذكرُها لاحقًا.

الفصل الثاني

مكانة السيِّد ابن طاووس وتأثيره في العرفان الإسلاميّ

تحظى معرفة الوجود، وحقائقه بأهميَّة بالغة عند البشريَّة دائمًا، كما أنَّ للموحِّدين طرائق لمعرفة أسرار تلك الحقائق التكوينيَّة، والتشريعيَّة، وتحصيل ومعرفة هذه الأسرار للوجود متداولة بين علماء المسلمين، وعلى الخصوص علماء الشِّيعة، والأهمّ من ذلك طرائق الوصول إلى الحقيقة المطلقة عبر التجربة العمليَّة (السَّير، والسُّلوك).

ومن هنا يحتاج الوصول إلى الاستعداد والجهد والجدِّ الكثير، والأخذ من المشكاة[1].

ومن منظار المريدين في مدرسة السُّلوك العمليّ، فإنَّ أقرب طريق لوصول الإنسان إلى كمالاته، والمقامات العالية، هو الطريق المستند إلى سنَّة المعصوم وطريقته، ويُبنى العرفان العمليّ عليه.

ويعدُّ السيِّد ابن طاووس مثالًا لهذه الرُّؤية.

ونتناول في هذا الفصل أثر السيِّد ومكانته، والسيِّد والتصوُّف، وسأُشير لهما بالترتيب.

(١) إشارة الى سورة النور، الأية: ٣٥.

١. أثر السيِّد ومكانته:

نسلِّط الضوء في هذا القسم من دور السيِّد على سنَّة المعصومين عليهم السلام وطريقتهم، ومكانته في مدرسته والتي تعد من خصائصها.

١-١. أثر السيِّد ومكانته في تسليط الضَّوء على سنَّة المعصومين عليهم السلام وطريقتهم

تقدَّم أنَّ السيِّد يولي اهتمامًا، وعنايةً خاصَّة للشريعة والسنَّة؛ فلا يعتقد بالانفكاك بين السُّلوك المعنويّ العرفانيّ عن الشَّريعة والسنَّة النبويَّة؛ فلا ينظر لهُ باستقلاليَّةٍ، وتعدُّ هذه الحقيقة في الفضاء العرفانيّ موجودة، وهي إعلام عدم انفكاك العرفان عن الدِّين والفِطرة، كما تعدُّ إظهارًا لخير الدُّنيا، والآخرة لأهل المعرفة، والأمان في كلِّ مكانٍ، وزمانٍ.

وما يعدُّ شاهدًا من أنَّ السيِّد يتحرَّك في هذا الإطار أنَّه يعلن في آثارِه على أثر، ومكانة الشريعة، والسنَّة، وطريقة المعصومين عليهم السلام.

كما يعتقد أنَّ طريق الفِطرة بمساعدة الكتب السماويَّة، والأنبياء، والأوصياء عليهم السلام أسهل طريق للوصول إلى المعرفة(١).

فالسيِّد يعتقد أنَّ الفِطرة طريقٌ لمعرفة الله تعالى بدلائل، وتنبيهات الكتب السماويَّة(٢).

كما يَعدُّ السيِّد المكاشفة مُستندةً إلى القرآن الكريم، وإن كانت خلافًا لبعض النَّاس في ذلك(٣).

(١) كشف المحجَّة: ٤٨.
(٢) المصدر نفسه: ٦٨.
(٣) المصدر نفسه: ١٤٣.

كما سجَّل السيِّد في كتاباتِه من أنَّ أقوال الأنبياء والأوصياء سلام الله عليهم موافقةٌ للفِطرة.

واعتبر المعصوم عليه السلام (الكامل) الحافظ للأمانات الإلهيَّة، والمقامات المحمَّديَّة، واتَّضح ذلك عبرَ البحوث السَّابقة من إشارات السيِّد لذلك، وما يعدُّه من أثرٍ للسنَّة، وطريقة المعصومين عليهم السلام[1].

وفضلًا عن ذلك، فإنَّه ذكَرَ انتساب الصوفيَّة، وله تأييدٌ إجماليّ للصوفيَّة المتشرِّعة، ولكن نلاحظ تمركز كلامه حول سنَّة الوصيّ الأعظم الإمام عليّ عليه السلام، وطريقته، وما تقدَّم ويأتي في هذا السِّياق شاهدٌ على ما نقوله[2].

وما يؤيِّد هذا الادِّعاء ملاحظة مجموعة آثار السيِّد من اعتماده في منهجه سلوك السَّائلين على الأدعية المأثورة، وتقريبًا في كلِّ آثاره، أو أغلبها، يختم كلامَهُ بحديثٍ؛ فلا يعجبُه أن يختمَ كلامَهُ بغير كلام المعصوم عليه السلام.

كما أنَّ السيِّد يطبِّق الأوامر الشرعيَّة في المناسبات الزَّمانيَّة، والمكانيَّة: «اعلم أنَّ الأوقات المعظَّمات ورد بعض تعظيمها في الآيات، وبعض آخر في الروايات مثل شهر رمضان، والأشهر الحُرم، والأيَّام المعلومات، والأيَّام المعدودات، وغيرها من الأوقات المحرَّمات، وأمَّا الجهات المكرَّمات مثل المسجد الحرام، والكعبة، ومسجد النبيّ صلى الله عليه وآله، وبيت المقدس، والمشاهد المشرَّفة، والمساجد المباركات، وكلُّ موضع أتى بتعظيمه قرآنٌ، أو روايات؛ فإنَّه ينبغي تعظيمه بحسب الأوامر الشرعيَّات، وأن يكون الإنسان متحفِّظًا فيها من السيِّئات، بخلاف ما لا يجري مجراها من الأوقات

(١) جمال الأسبوع: ٣٢٩-٣٣٠.
(٢) كشف المحجَّة: ٤٠، ١٧٤.

والجِهـات، تعظيـمًا لما أمر الله عزَّ وجلَّ جلالهُ بتعظيمه، وامتثالًا لأوامر رسـوله ﷺ، في تكريمه»[1].

ونلاحـظ السـيِّد حتَّـى في ضرورة الآداب مـع الله ﷻ في المباحات ناظـر فيها إلى الروايات، ويذكر هذه السنَّة مُستندًا فيها إلى سيرة المعصومين عليهم السلام، وطريقتهم.

ويكتب السـيِّد عن الزهد والابتعاد عن الدنيا: «فهذه سـيرةُ جـدِّك محمَّد، وأبيك عـليّ صلـوات الله عليهما؛ فإنِّني وجدتُهم قد امتنعوا أن يخلِّفـوا لورثتهم ذهبًا، أو فضَّة، وخلَّفوا لهم ما يكفيهم، ويفضل عليهم من الأملاك، والعقار»[2].

«وكنت قد رأيتُ، ورويـتُ في تواريخ الأنبياء، والأوصياء، وصايا لمن يعزُّ عليهم صلوات الله عليهم، ووجدتُ سيِّدنا محمَّد الأعظم، ورسوله الأكرم، قد أوصى مولانا، وأبانـا عليًّا المعظَّم صلـوات الله عليهما وآلهما، وأوصى كلٌّ منهـما جماعة ممَّن يعزُّ عليهما، ووجدتُ وصايا مشهورة لمولانا عليّ صلوات الله عليه إلى ولده العزيز عليه السلام، وإلى شيعته، وخاصَّته»[3].

ويعتقـد السـيِّد أنَّه ينبغي أن نقتـديَ بالمعرفة، والحالات بمعرفـة، وحالات النبيِّ الأعظـم وطريقة، والأئمَّـة الأطهار (سـلام الله عليهـم)، ونلاحظ بالمعاملة سـلطان العالمَـين: «وكانا (الإمام عليّ، والإمام السـجَّاد عليهما السلام) إذا دخلا في التوجُّه اصفرَّ لونهما، وظهر الخوف من الله جلَّ جلالهُ عليهما؛ لأنَّهما عليهما السلام عرفا وعلِما هيبة الملك الذي يقومان

(١) محاسبة النفس: ٢٥.

(٢) تمـام العبـارة: «ولا تكره أنيِّ ما أخلِّف لك، ولإخوتك ذهبًا، ولا فضَّة بعد المات، فهذه سـيرة جـدِّك محمَّد، وأبيك عليّ صلـوات الله عليهما، فإنَّني وجدتهم قد امتنعوا أن يخلِّفوا لورثتهم ذهبًا أو فضَّـة، وخلَّفـوا لهم ما يكفيهم ويفضـل عليهم من الأملاك والعقار». كشـف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٨٠.

(٣) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٤٥.

بين يديه. وسيأتي في هذا الكتاب من خوف النبيِّ وطريقته في الصَّلوات، وخوف عترته المعصومين ما تعلم يقينًا أنَّك لستَ تابعًا لهم، وأنَّك على خلاف ما كانوا عليه من معاملة سلطان العالمين»[1].

١-٢. مدرسة السُّلوك

تعدُّ الرَّكيزة الأساس في مدرسة السيِّد السلوكيَّة السلوك العمليّ، وتتمتَّع هذه المدرسةُ بخصوصيَّاتٍ، أهمها:

١-٢-١. يعدّ الدّين، ومحوريّة الفِقه أصلًا؛ فيجعل من الشريعة والفقهَ، من خصائص مدرستِه.

١-٢-٢. من خصائص مدرسته سلوكُ السَّائلين، وإنشاء الدُّعاء، وتقدَّم الكلام مفصَّلًا في هذا السّياق.

١-٢-٣. تلقَّى المحدِّثون آثار السيِّد الروائيَّة، والدعائيَّة بالقبول، وصارتْ كتبُه مرجعًا لهم في ذينك الأمرينِ، كما انعكس ذلك في الكتب الروائيَّة أيضًا.

كما تمتَّعت شخصيَّته المعنويَّة في الأخلاق، والعِرفان بالقبول من جميع علماء الإماميَّة، سواء كانوا من العرفاء أم من غير العرفاء، وبتواترٍ لا نظيرَ لهُ.

وسيأتي إن شاء الله تعالى من أنَّ المتصوِّفة ذكروا نصوصَ السيِّد بشكلٍ حسَنٍ.

وما ذكره المرحوم المحدِّث النوريّ في مدح السيِّد ابن طاووس، وما له من كرامات باتِّفاقِ الإماميَّة باختلاف مشاربهم الفقهيَّة، والأصوليَّة، والحديثيَّة، والروائيَّة: «السيِّد

(١) فلاح السائل: ١٠١.

الأجل الأكمل، الأسعد الأورع، الأزهد، صاحب الكرامات الباهرة، رضيّ الدين أبو القاسم، وأبو الحسن عليّ بن سعد الدين موسى بن جعفر آل طاووس، الذي ما اتَّفقت كلمة الأصحاب، على اختلاف مشاربهم، وطريقتهم، على صدور الكرامات عن أحدٍ ممَّن تقدَّمه، أو تأخَّر عنه، غيره»[1].

كما ذكر السيِّد الخميني أنَّ السيِّد ابن طاووس من كبار العلماء، والمقبولين عند الجميع: «فيا أيُّها العزيز لا يوسوس الشَّيطان في صدرِك، ولا يقنعك بما أنت عليه فتحرَّك قليلًا، وتجاوز من الصُّورة، والقشر بلا لبٍّ، واجعل ذمائِمَ أخلاقِكَ، وحالاتك النفسيَّة تحت المطالعة، والمداقَّة، واستأنِسْ بكلمات أئمَّة الهدى عليهم السلام، وكلمات الأعاظم؛ فإنَّ فيها بركاتٍ.

وعلى فرض أنَّك لا تعرف أحدًا من العُرفاء؛ فاتبعِ الأعاظمَ من علماء المعرفة، والأخلاق المقبولين عند الجميع، كجناب العارف بالله، والمجاهد في سبيل الله مولانا السيِّد ابن طاووس رضوان الله عليه..»[2].

شهادات أكابر العُلماء على ما تقدَّم من ادِّعاء الشَّهيد الثاني، في تعريف لكتاب الطَّرائف: «السيِّد الجليل، النَّبيل، فريد العصر، وأُعجوبة الدَّهر، الزَّاهد النَّقيب، السيِّد عليّ ابن طاووس الحُسينيّ»[3].

وقال العلَّامةُ في الإجازة الكبيرة: «السيِّد العالم العابد صاحب الكرامات الظاهرة، والمآثر الباهرة رضيّ الدِّين أبو الحسن عليّ بن الطاووس الحسنيّ»[4].

(١) مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، الخاتمة: ٢/ ٤٣٩.
(٢) سرُّ الصلوة (موسوعة الإمام الخمينيّ ٤٧): ٥٤.
(٣) حقائق الإيمان (الشهيد الثاني): ١٥٦، (والحقيقة أنَّه سيِّد حسنيّ، وليس سيِّدًا حُسينيًّا).
(٤) العامليّ، الشهيد الأول، ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة: ٤/ ٢٦٧.

وحسبنا ما ذكره العلَّامة الحِلِّيّ في مدحِه في إجازته لبني زهرة[1].

وتقريبًا يميز السيِّد بابن طاووس من غيرِه من كبار آل طاووس؛ فعندما يُطلق ابن طاووس يُراد به السيِّد عادةً.

كما يذكرهُ العلَّامة المجلسيّ بألقابٍ بالواسطة، أو عدم الواسطة بـ«صاحب المقامات والكرامات»[2].

«السيِّد الجليل صاحب المقامات، والكرامات رضيّ الدِّين بن عليّ بن طاووس»[3].

«السيِّد السَّند المعظَّم المعتمد العالم العامل العابد الزَّاهد الطِّيب الظَّاهر، مالك أزمَّة المناقب، والمفاخر صاحب الدَّعوات، والمقامات، والمكاشفات، والكرامات، مُظهر الفيض السَّنيّ، واللطف الخفيّ، والجليّ أبي القاسم رضيّ الدِّين عليّ، بوأه الله تحت ظلِّه العرشيّ، وأنزل عليه بركاته كلَّ غداةٍ وعشيّ»[4].

«السيِّد الأجلّ عليّ بن موسى بن طاووس، صاحب الكرامات»[5].

«وكان رحمه الله من عظماء المعظِّمين لشعائر الله تعالى، لا يذكر في أحدٍ من تصانيفه الاسم المبارك إلَّا ويعقبه بقوله: جلَّ جلالُه»[6].

وأثنى عليه الحرُّ العامليّ في (أمل الآمل) بقوله: «حاله في العلم، والفضل، والزُّهد،

(١) القمِّيّ، الشيخ عبَّاس، الفوائد الرضويَّة في أحوال العلماء المذهب الجعفريَّة: ١/ ٥٤٢.
(٢) المجلسيّ، بحار الأنوار: ٥٣ و٢٠٨/ ٦٧، و٢٣٤/ ٨٨، ٢٨٨/ ١٠٤، ٤٥ و٢٠٦/ ١٠٧.
(٣) البحرانيّ، يوسف، الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة: ١٥/ ١٣، ٣٥٩/ ٦، روضات الجنَّات: ٣/ ١٤٤.
(٤) التستريّ، أسد الله الكاظميّ، مقابس الأنوار ونفائس الأسرار: ١٢.
(٥) النجفيّ، محمَّد حسن، جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام: ١٣/ ٣٥.
(٦) النوريّ، الميرزا حسن، خاتمة المستدرك: ٢/ ٤٤٥-٤٤٦.

والعبادة والثقة، والفقه، والجلالة، والورع أشهر من أن يُذكر، وكان أيضًا شاعرًا منشئًا بليغًا»[١].

«قال الماحوزيّ في البُلغة: صاحب الكرامات، والمقامات ليس في أصحابنا أعبد منه، وأورع»[٢].

كما ذكره النسَّابة المعروف ابن عِنَبة بصاحب الكرامات[٣].

وينقل المحدِّث النوريّ عن لسان الشيخ البهائيّ: «الشيخ البهائيّ في الكشكول ممَّا نقله جدِّي من خطِّ السيِّد الجليل الطاهر ذي المناقب، والمفاخر السيِّد رضيّ الدِّين عليّ ابن طاووس قدس سره»[٤].

وقال المحدِّث القمِّيّ عنه: «.. رضيّ الدِّين أبي القاسم عليّ بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسنيّ الحسينيّ، السيِّد الأجلّ الأورع الأزهد قدوة العارفين.. وكان رحمه الله مجمع الكمالات السَّامية حتَّى الشِّعر، والأدب، والإنشاء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[٥].

وقال أيضًا: «السيِّد رضيّ الدِّين أبو القاسم الأجلِّ الأورع الأزهد الأسعد، قدوة العارفين، ومصباح المتهجِّدين، صاحب الكرامات الباهرة، والمناقب الفاخرة، طاووس آل طاووس السيِّد ابن طاووس قدَّس الله سرَّه، ورفع في الملأ الأعلى ذكره»[٦].

وأيضًا: «وأنا إذا مدحته كنت كمن قال لذكاءٍ ما أنورك، ولخضارةٍ

(١) أمل الآمل: ٣/ ٢٠٥.
(٢) الحائريّ المازندرانيّ، الشيخ محمَّد بن إسماعيل، منتهى المقال في أحوال الرجال: ٧/ ٣٢٠.
(٣) ابن عنبة، جمال الدين، عمدة الطالب: ١٩٠-١٩١.
(٤) المحدِّث النوريّ، مستدرك الوسائل: ١٦/ ٢٠٤.
(٥) الكنى والألقاب: ١/ ٣٣٩.
(٦) الفوائد الرضويَّة: ٣٣٠

ما أغزرك»[1].

وقال اتان كلبرك كلبرگ إتان: «تتَّضح تقوى ابن طاووس من عبارته الكثيرة المنتشرة في كتبِه»[2].

وممَّا ينبغي الإشارة له أنَّنا لا نعني بمقبوليَّة السيِّد في هذا البحث تأثُّر الآخرين بأفكارِه في اعتقادِهم، وعلمهم، وسيرتهم العمليَّة.

١-٢-٤. استمرار سيرة ومدرسة السيِّد، ومقبوليَّته بين علماء الدِّين، والحوزة؛ بل ما زالت في بعدها العمليّ بوجوده في الحوزة الشيعيَّة بواسطة العرفاء، وأرباب السُّلوك، مثل: المرحوم ملَّا حسين قُلي الهمدانيّ، وانعكس ذلك على نظر وسيرة السُّلوك مستقبلًا، وانتقل منه إلى طلَّابه كـ: العلَّامة السيِّد حسن الصَّدر، والمرحوم محمَّد البهاريّ، والسيِّد أحمد الكربلائيّ، والميرزا جواد الملكيّ التبريزيّ. وثمَّة استمرارٌ لمتابعة منهج السُّلوك الأخلاقيّ، والتربويّ للسيِّد، وهو مسلكُ تهذيب النَّفس، والمراقبة، والصُّعود، والوصول إلى المراحل العالية من الكمالات الإنسانيَّة، واستمرَّ هذا المسلك في التَّهذيب، والمراقبة، والسُّلوك المعنويّ، والعرفانيّ، وبيان أسرار العبادات قرنًا بعد قرنٍ لاحقًا، وبتعبير المحدِّث الشيخ عبَّاس القمِّيّ: «قدوة العارفين، ومصباح المجتهدين»[3].

يمكن أن نشير إلى جملةٍ من الشخصيَّات التي انعكست عليهم الأفكار العرفانيَّة، وسنَّة السُّلوك المعنويّ للسيِّد، منهم:

والقسم الأخير يأتي، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

(١) الفوائد الرضويَّة: ٥٤٢.

(٢) كتابخانه ابن طاووس واحوال واثار او (=مكتبة ابن طاووس واحواله واثاره): ٤١، هذا الكتاب كتب باللغة الإنجليزيَّة، وتُرجِم الى اللغة الفارسيَّة، وهناك من ترجمهُ إلى العربيَّة، ولكن يبدو إلى الآن لم يطبع.

(٣) الفوائد الرضويَّة: ١/ ٥٤٢.